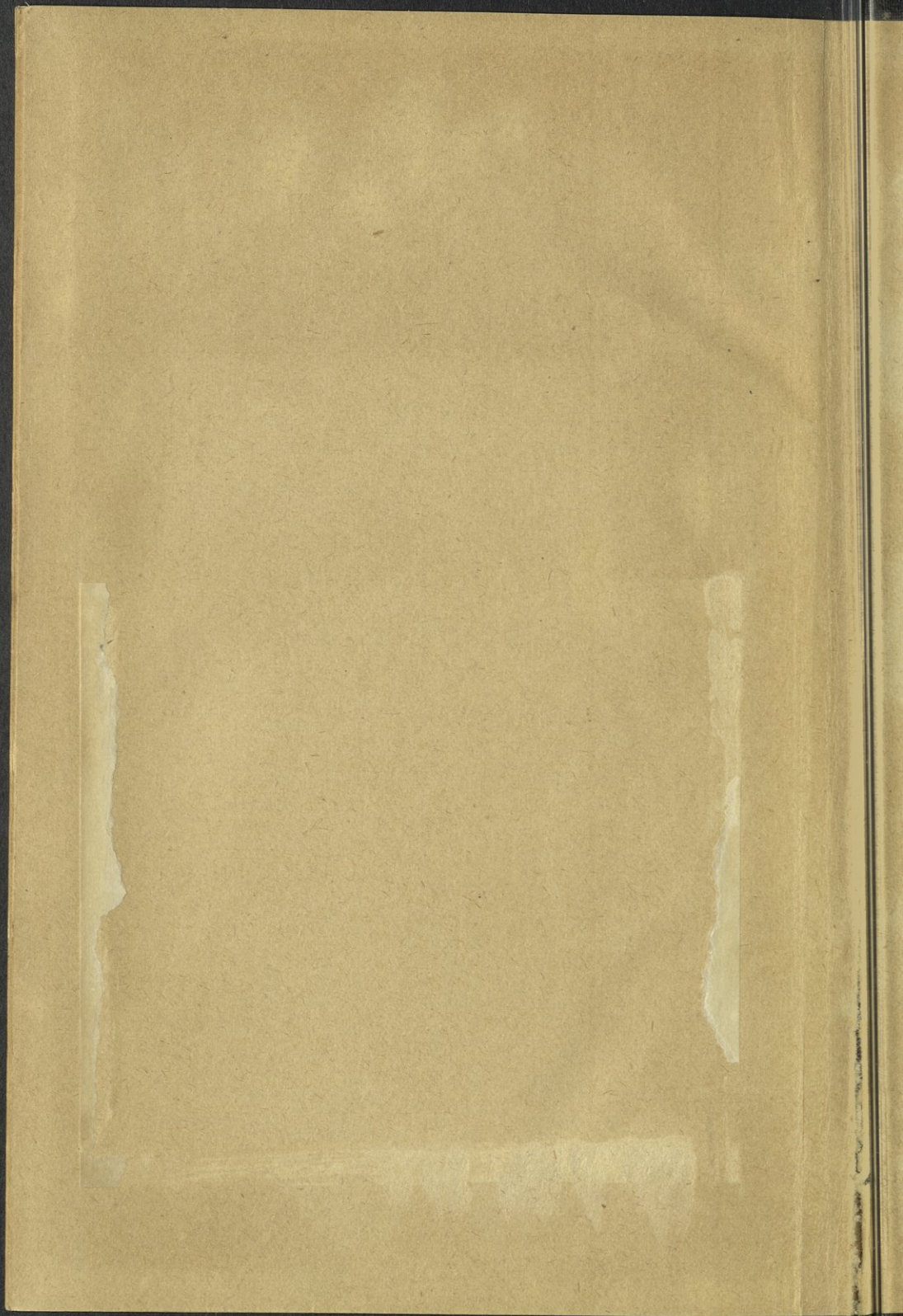
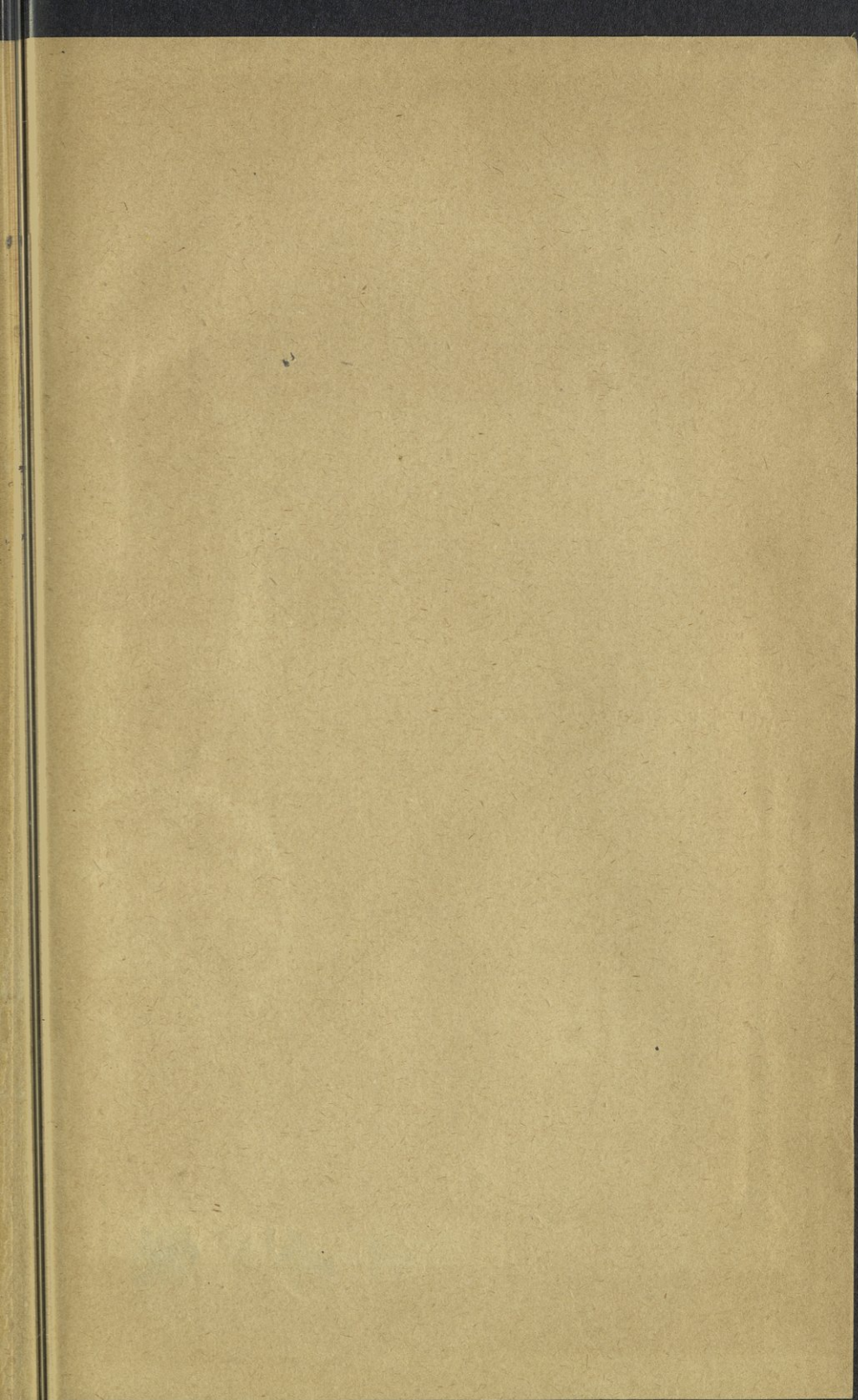










A. S.

محمود محمد شيبان

892.78
Sh 5758wA
C.1

وراء الأفق

نال جائزة القصة من وزارة المعارف

عام ١٩٤٩

الثنى ١٥



مكتبة المطبع والنشر

مكتبة نخضة مصر بالفجالة

٧٧٨٩١

مطبعة نخضة مصر بالفجالة

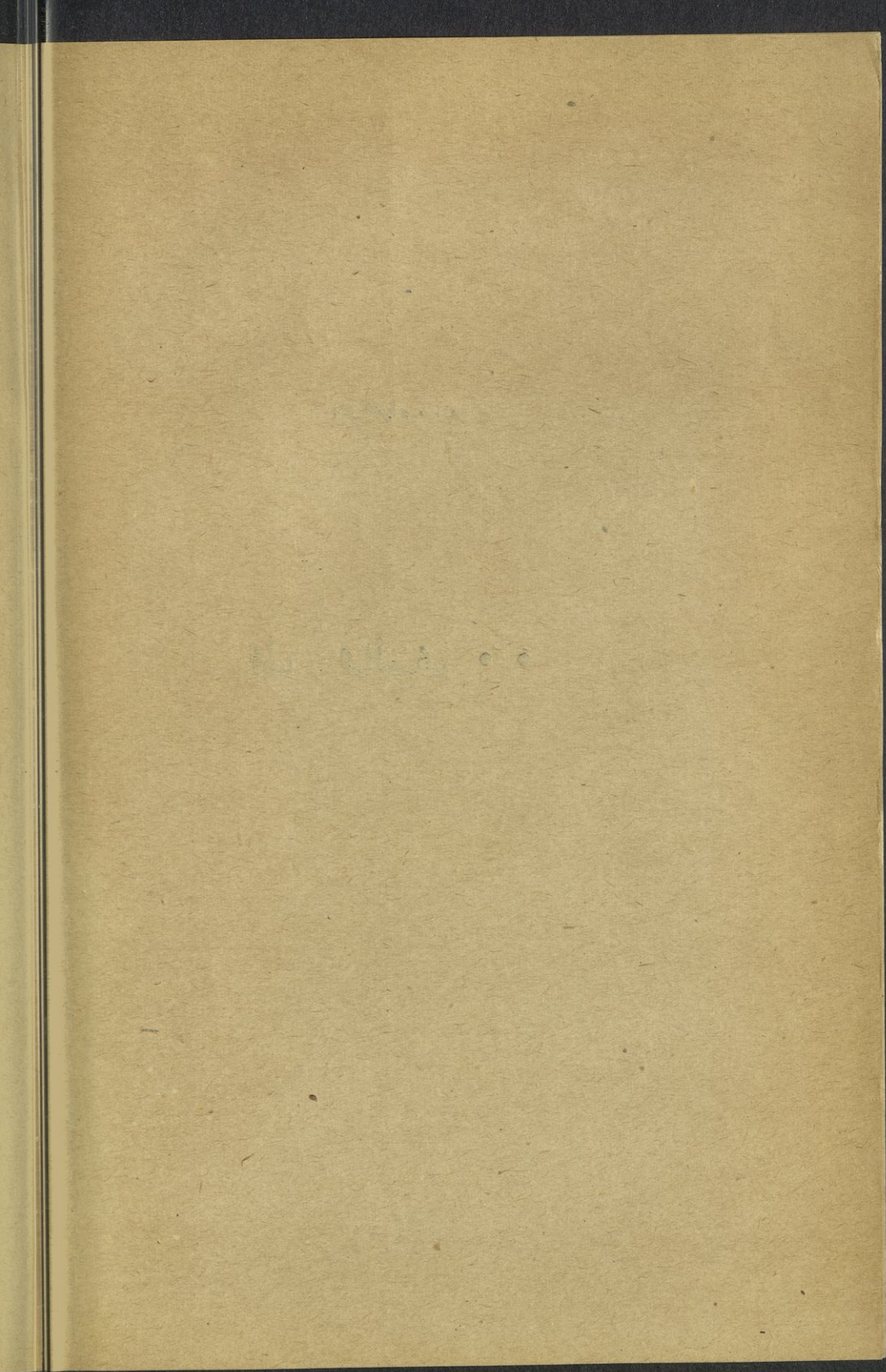


Est. Dec. 51



الاشهراء...

الى والدى ..



كانت أيام الخريف الماضى من الأيام التى لا تنسى فى حياتى ،
أقبلت أيامه الأولى وأنا أودع أعز من أحببت بين الناس وأودع ،
معه أيضا صحبة أعوام طويلة مليئة بأطيب ألوان السعادة والهناء ..
وظلت أيام هذا الخريف تمر وتتعاقب ، فتهتز على تعاقبها ومرورها
الاشياء الجميلة فى حياتى ووجودى - ولم يكده يشرف على نهايته حتى
بدأت هذه الاشياء تتساقط وتهوى ... فلها أقبل الشتاء كان قلبى
قد تجرد من كل أسباب الدفء والأمن والضيء ، وأصبح كل ما
أحوزه وأمتلكه وأعتز به ذكريات - وكان على وأنا أقاوم
الظلمات والبرد ، أن أغلب أيضا الأحزان والآلام التى تبعثها
هذه الأوراق الجافة المتناثرة من حياتى فى كل مكان .. لقد كانت
ذات يوم خضراء أروع ما تكون الخضرة ، لا تتنفس من هذه
الاجواء التى تحيط بها . إلا نسيمات الأمل ، ولا ترى من هذه
الألوان التى تزخر الحياة بها ، إلا ألوان السعادة ...

لقد أصبح عقلى فى تلك الأيام ، مسرحا للمتناقضات ، لا
تشعر أية فكرة أو خطرة بالقرار والأمن فيه ... ومن عجب أنى

حين حاولت التماس النجاة ، من هذه الحال التي وجدت نفسي غارقا فيها ، كنت ألتمسها من الشيء وضده — إتجهت ببصرى إلى السماء ثم سرعان ما عدت لأملأ عيني بما على الأرض . . أردت أن ألتمسها فى المثل والمعانى .. وعدت أبحث عنها فى المادة . . ! ووجدت فى النهاية أننى لم أفعل شيئا إلا أن تركت السبيل للشك لينفذ إلى حياتى — من هذه المنافع الكثيرة التى كانت تأتىنى منها رياح الظلمات واليأس — لينشئ أكثر وأكثر عن طريق النجاة ، وشعرت بعد نهاية المطاف أنه لم يعد فى وسع عقلى أن يهدينى إلى النجاة من أى سبيل ، لأن قلبى قد أحال كل شئ فى حياتى إلى فراغ . . .

وفى هذا المعترك الصاحب بالظلمات والاحزان ، كانت تمر على لحظات قصيرة خاطفة أحس كأننى قد نفضت فيها عن نفسى كل الأثقال التى أنوء بها — وأحس كأن روحى قد انطلقت بهذا الجسد السكيل المتداعى ، بعيدا عن هذه الأرض ، لتشرف من هناك على عوالم جديدة من المعانى والرموز . كنت أشعر فى هذه اللحظات أننى قد انسلخت عن هذا العالم ، فلم يعد وجودى يرتبط بمكان أو زمان فيه — وأشعر أن فى وسع عقلى أن يسبح فى جو صاف تحرر من السحب والغيوم . وأمست هذه اللحظات القصيرة

التي توامض كما يومض البرق ، هي كل لحظات الأمن والسلام في حياتي — وكان الصوت الخافت الضئيل ، والحركة الخفيفة ، تكفي لكي تخرجني منها لتدفعني في قسوة إلى المعتكز الصاحب ، الذي كام يسلمني لما هو شر من الموت — وتولدت في نفسي مع الأيام الرغبة في التماس العزلة ونشيدان الوحدة . وأصبح من عادتي أن أسعى من يوم إلى يوم ، إلى أماكن منعزلة على هذه الصحارى الملتفة حول المدينة — أقضي الساعات الطوال في هدوء وأمن — ولكن ما أكاد أرتد بعدها إلى زحمة الحياة ، حتى أشعر بحرج صدرى ، وحسرة طبعى ، وأحس بنفسي قلقا لا أشعر بالقرار إلى رأى أو حال .

وفي يوم ، عصفت بي عاصفة من الأفكار المؤلمة ، سممت كل الأجواء المحيطة بي مدة من الزمن ، فقدت فيها السيطرة على كل نفسي وسلوكي ، وبدأت أرى في عيون أهلي وأصحابي — لأول مرة في حياتي — نظرات غريبة ، لم أعودها في عيونهم من قبل ، وبدأ لي أنهم بدءوا يضيقون بكل تصرفاتي ، ويحملون من أعبائي أكثر مما يطيقون . ولم أشعر بالاضطراب والقلق كما شعرت بهما في هذه الأيام .. لم أكن أدري ماذا أفعل .. لقد جربت كل شيء لكي أصل نفسي بشيء من الطمأنينة والأمن ، جربت

كل شيء وليسكن بقى شيء واحد ، كنت أخشاه وأرهبه ، ومع ذلك فقد بدأت أجربه فى تلك الايام الرهيبة . . . بدأت أجرب الشراب للوصول إلى الطمأنينة ونشidan النفسيان . . ! وتعودت مع الأيام أن أنسى فى سكرة الشراب نفسى ، وأنسى تلك الأيام التى سلفت من حياتى ، التى تكمن فيها كل أسباب قلقى وضيقى وآلامى ...

كنت أجلس ذات يوم فى مكان من هذه الأماكن التى أجد فيها بغيتى من الشراب ، أنتظر بين دقيقة وأخرى قدوم الساقى . حين رأيت صديق « منير » . . واقفاً أمامى ، وما أن رفعت بصرى إليه ، حتى ابتدرنى بقوله : « . . أمين أنت هنا . . » ! ثم تناول مقعداً فجلس قبالتى وتابع حديثه قائلاً : « أننى أبحث عنك منذ أيام » . قلت : خيراً

فسمكت لحظة وقال : لقد حدثنى أخوك عنك بعض الحديث الذى أزعجنى .

قلت : وما الذى حدثك به . . ؟

قال : لقد حدثنى عن حالك . . . عن هذا الاضطراب الذى يفسد عليك حياتك ..

قلت : وحياته هو أيضاً ألم يقل لك ذلك .. !

قال : كلا .. لم يقل شيئاً من هذا .. لقد خطرت لى فكرة ...
وفي هذه اللحظة أقبل الساقى بالشراب فوضعه أمامى فسألت
صديقى : هل تشرب شيئاً ... ؟

لم يجب بشيء .. وظل لحظة يتأملنى فى عجب ، فصرفت الساقى .
وقلت له : « لماذا تنظر إلى هكذا ... ! إننى لست أول من
شرب الخمر كما ترى .. » ودرت بطرفى فى أنحاء المكان كأنما أود
لفت نظره إلى هؤلاء الناس الذين يتناولونها فى يسر وبساطة ..
قال : ... فى الحق لا أدرى ماذا أقول .. لم يكن يخطر على
بالى قط أن أراك على هذه الصورة

قلت : هوّن على نفسك يا صاحي . إن الحياة لا تستحق مثلاً
هذا العناء الذى تتكلفه ، نزولاً على مقاييسها ، وخضوعاً لمبادئها .
قال : لقد كنت آخر من أتوقع سماع هذا الكلام منه ...
قلت : ماذا أفعل .. يجب أن أشرب ...

فقال : مقاطعاً — لماذا .. ؟

قلت : لم يعد أحد يطيقنى ، أنا نفسى أضيق ذرعاً بسلوكى ...
لقد فقدت الأيمان بنفسى .. ويجب أن أشرب ، وأشرب حتى
أنسى ، وحتى لا أسلم نفسى للجنون ..

وتناولت الكأس فأفرغتها مرة واحدة فى جوفى ، وقلت

«إنكم تخشون الخمر .. لأنكم طامعون جشعون .. تسكالبون على كل لحظة من حياتكم مهما ضوّلت وتناهت .. بكم ظمأ قاتل إلى الحياة ، لا تريدون أن تدعوا قطرة واحدة منها تغفلت منكم ... أما أنا فليست بي رغبة إلى شيء من هذا ... وعلى الضد ، أرى أن ظمئى إلى الفناء والعدم .. لا إلى الحياة .. أريد أن أنسى أنى حى ، أريد أن أفر منها .. وهذا مركبى ... »

وامتدت يدي ، فلأت كأساً ثانية ، ثم رفعتها إلى فمى ... ولا أدري ماذا طالع صديقى على وجهى فى تلك اللحظة ، فجعله يضع كفه على عينيه ... وعند ما رفع يده بعد برهة ، طالعت فى عينيه ظل دموع ... !

رباه .. ماذا فعلت ؟ وماذا قلت ؟ حتى أصيب هذا الصديق بأذى .. لقد رانت على قلبي سحابة من السكابة والهم فلم أدر ماذا أقول له فأعذر عنده .. وساد السكون لحظة طويلة وهو يتحاشى النظر إلى .. ثم رأيته يقبل على مرة أخرى ويقول :

— يا أمين ... إننى أشعر بالألم لأننى أراك أماًى هكذا وأحس العجز عن معاونتك أو الأخذ بيدك .. ومع ذلك فمن الواجب أن أفعل شيئاً لىكى أستشعر الرضا عن نفسى ... لدى فكرة ،

لماذا لانجربها ، إبسط يدك إلى يدي يا أمين فلعن الله أن يهنيء لنا
من هذا الأمر بعض الرشد.

قلت في شيء من الأسف — .. لقد جربت كل شيء يا صديقي ..

قال : فلانجرب هذا الأمر أيضا ..

قلت : وما هذا الأمر .. ؟

قال : إنني أعرف طبييأ ، صديقالى ، أعتقد أن فى وسعه
علاج أمرك ..

قلت : ولسكنى بخير كما ترى ، إننى لا أشكو علة ..

قال : إن جسدك بخير .. ولسكن روحك .. ونفسك هما ما
يعينيانى .. ما رأيك يا أمين ، فلانجرب هذا أيضا ، إننا لن نخسر
شيئأ ، لماذا لا تنهض معى الآن لنذهب إليه ..

وساد الصمت لحظة ، وكانت نظرات صديقى معلقة بوجهى
كما أننا تتوسل إلى أن أستجيب إلى دعوته فقلت : « إننى طوع أمرك .. »
ونهضنا من فورنا فمضينا إلى صديقه الطيب . ولقينا الرجل
لقاء طيبا حميدا ، دلى على مكانة صديقى عنده ، ثم بدأ « منيز » ..
يحديثه عن أمرى ، فسرده له ما عرفه عن حياقى الماضية وقص عليه
بعض ما حدثه به أخى عنى .. وحين فرغ من حديثه إتجه الطيب
إلى ، وسألنى : « أحق ما يزعمه صاحبك .. ؟ »

قلت : أجل ..

قال : وما سبب ذلك .. ؟

قلت : لا أدري ..

قال : ومتى شعرت بهذا .. ؟

قلت : منذ عام

ثم سألتني : ألا تتذكر حادثاً معيناً اقترنت به هذه الأعراض .. ؟
قلت : في الحق إنني لا أذكر شيئاً .. . إن ما يحدث لي يحدث
للكل الناس ، وليس من الواجب أن أعطي الذي حدث لي أهمية
خاصة .. لقد نسيته ، أجل نسيته .

قال : هل في وسعك أن تحدثني عن أسلوب حياتك .. ؟

قلت : ... لم يعد لي أسلوب خاص أمضى عليه في حياتي ، إن
ما يمكن في نفسي من أسباب الاضطراب والقلق لا يدع لي فرصة
لاختيار أسلوب معين .. . إنني مسوق بقوى لا تدفع إلى أنواع
من السلوك لا أعتقد أنها تلقى الرضا من إنسان ... لقد أصبحت
عبثاً على المتصلين بي ، وأصبحت أرى من واجبي أن أنأى لهذا
السبب بنفسى عن الحياة والأحياء ...

قال : وما السبيل الذي تسلكه للنأى عن الحياة والأحياء ؟

قلت : سبيلي إلى ذلك ، الشراب والعزلة .

وسكت الطيب لحظة ثم عاد وسألني : « هل تعتقد أن هذا هو كل ما في حياتك ... ؟ »

قلت : توجد لحظات قصيرة ، أحس بها عند ما أخلو إلى نفسي .. أشعر أنني فقدت فيها صلتى بكل شيء ، بماضي وحاضري ، ومستقبلي .. أحس فيها بحركة سريعة تعتمل في ذهني وعقلي ، وأشعر كأن وقدة خاطفة قد اتقدت أمام قلبي وبصيرتي ، فيكشف لي كل هذا عن معان وصور جديدة — كل الجدة — لما أراه وأدركه ..

وأطرق الطيب لحظة وهو يفكر ، فسألته .. « هل في وسعك أن تفعل لي شيئاً ياسيدي .. »

قال : سوف نرى .. أرجو أن تقبل إلي من حين إلى حين . وفي أي وقت تشاء ، وحسبي في المرحلة الأولى أن تتحدث إليّ وأتحدث إليك ، حديث الأصدقاء ، فقد أصبحنا كذلك من الآن . فشكرته وقلت : ولكن ألا تشير على شيء الآن ..

قال : كلا .. إمض في حياتك على الأسلوب الذي تمضي عليه الآن — وسترى في يوم من الأيام أنك في غير حاجة لكي يشير عليك إنسان بشيء ، لأنك ستفعل كل شيء لنفسك ..

قلت في غبطة — أحقاً .. ما تقول .. !؟ هل سيكون في

مقدورى فى يوم من الايام أن أفعل شيئا لإنقاذ نفسى ...
فقال فى ثقة — إن شاء الله ...

انصرفت أنا وصديقى بعد أن شكرنا الطبيب ...
ومضى شهر وأنا أتردد عليه من وقت لآخر حتى توثقت بى
وبينه أسباب الثقة والمودة والألفة — وبدأت أحدثه عن نفسى
وذكرىاتى ، وآمالى التى ذهبت بها الايام ... وكنت أستطرد معه
فى الحديث ، فأقص عليه أشياء لم أكن أتصور أن فى وسعنى
إخراجها إلى إنسان — وكان يسجل فى أوراقه ما يرى
تسجيله من قصة حياتى الماضية — ورأيت يبدل إهتماما خاصا لمعرفة
ما تدور حوله أحلامى فلم تكن تمضى زيارة حتى يسألنى أن أقص
عليه ما رأيت منها ... وفيما عدا ذلك ظلت حياتى تمضى على ذات
الاسلوب الذى كانت تمضى عليه قبل معرفته ، التمس من الشراب
بعض النسيان والراحة ، وأنشد الوحدة والعزلة فى هذه الاماكن
التى تنهى لى فيها أسبابها ..

وحدث ان سمعت ذات يوم قبيل الغروب ، إلى صحراء
الاهرام ومضيت أجول بين الآثار والأطلال ، حتى انتهيت إلى
كثيب مرتفع من الرمال فى جهة الغرب ، فاخترته مكانا لأقضى

عليه بعض الوقت — وهى ألى مقامى فيه أن أشرف على مناظر
كثيرة متباينة — فرأيت الصحراء تمتد ورائى إلى نهاية الافق ، وقد
هجمت رمالها فى شكون كأنها فى نوم أبدى ، تقوم عليها
هنا وهناك معالم أقامتها يد الانسان . ومع أنها كانت تبرز فوق
أديمها كأشارة على قدرة الانسان وقوته ، فإنها كانت تحمل على
ملاحها من علامات الفناء وأماراته ، أكثر مما تحمل هذه الذرات
الدقيقة من الرمال .

رأيت أمامى أضواء الشمس — التى كانت تبجنح وقتئذ إلى
المغرب ، تنفذ خلال هذه السحب الكثيرة المنتشرة فى السماء ،
إنقسط على أنحاء من الوادى ، تنير جوانب منه ، وتترك الظلال على
جوانبه الأخرى . فكانت بعض معالم القاهرة وبعض خضرة
الوادى تلمع لحظة فى عيني ، ثم سرعان ما تختفى لتلمع معالم
ومناظر أخرى غيرها ، مع تعاقب الظلال والأضواء عليها ...
وظل بصرى يتنقل مع الأضواء من منظر إلى منظر ، ومن مكان
إلى آخر ، حتى وقف على قبة الجامعة المصرية — فبدت أبرز المعالم
التى لملت فى عيني — وتمثلتها وأنا جالس فى ظلال هذه الآثار العظيمة ،
كأبتسامة مشرقة على فم الزمن ، تحي هذه الأمة الناهضة ، وتنير لها
طريق المستقبل والمجد ، وبقيت لحظة طويلة لا أنقل بصرى

عنها ، والأمل والفخار يملآن قلبي ، حتى تحركت سحابة كبيرة من
جهة الغرب فخبست عنها أضواء الشمس ، وأسدت عليها نقاباً من
الظلال — ولم أشأ أن أراها أقل لمعاناً وضياء مما بدت لي منذ
لحظات ، فحسرت بصرى عنها فى شىء من السكابة والأسف... ثم
ظل بصرى بعد ذلك ينحسر شيئاً فشيئاً عن هذه المعالم البعيدة
وعن هذا الوادى الأخضر اليسانع ، حتى بلغ فندق « مينهاوس »
لقد بدا فى عيني كعبد ذليل يسجد عند أقدام هذا الهرم ، يؤدى
له الصلاة التى تؤدى لكل ماهو خالد وعظيم... ومضى بصرى
يسرح بعد ذلك فى أنحاء هذه الساحة الكبرى ، ساحة هذا المجد القديم ،
ويتأمل فيما يقوم عليها من أهرام ومعابد ومقابر... وأعمدة
متناثرة...!

أيها الزمن... أهذا كل ما أمكن جمعه من أشلاء هذا المجد !
أهذا كل ما أمكن نور العلم أن يكشفه من ظلمات العدم...؟ أم
مازلت تخفى بين طياتك أضعاف ماظهر منها — إنك تعلم أيها
الزمن أن معولك الهدام قد أتى على معظم ماخلفته هذه الحضارة ،
عندما ولد التاريخ فهل تسكنى هذه الآثار والأطلال والمقابر التى
عشت بها يد الإنسان والقدر — والتى استمد منها التاريخ كل
مادته — هل تسكنى لىكى تروى قصة هذه الحضارة — إنك تعلم

أيها الزمن أنها ليست إلا سطوراً قليلة متباعدة من صفحات سجلها العظيم الحافل ... إن التاريخ أيها الزمن لم يكتف بنقل الصورة ناقصة إلى عقول الناس وأفئدتهم بل عبث بها وشوهها أيضاً — ألم يجردها من كل أرديتها الروحية والفكرية فبدت في عيون الناس على مدى الأجيال حضارة مادية غليظة قاسية . ! ألم يتساءل في كل وقت .. أين مكان الروح والفكر في حياة المصريين القدماء ؟ وأنت تعلم أيها الزمن أنه كان في وسعه أن يجد الجواب ، في هذه المعابد الكثيرة التي بقيت وحدها من كل ما أقامه المصريون من مبان وعمارة ، فأقاموا بها المحراب الأول ، الذي اتمس فيه العقل الإنساني طريقه إلى الحق .

ثم ألم يكن في وسعه ، أن يجد في بناء هذه الأهرام وفي خلودها وعظمتها ، إشارة إلى المدى الذي بلغه الفكر المصري بحثاً فيما وراء هذه الحياة ، بدلا من أن يعتبرها دليلا على وقوف هذا الفكر عند حدود الحياة الدنيا وتشبثه بها .. ! ألسنت تعلم أيها الزمن أن الذي يزعم أن جوهر هذه الحضارة يكمن في هذه الأحجار المتراسة طبقات فوق طبقات يخطئ خطأ عظيما ، كخطأ الذي يجرد الهيكل من فكرته ، ألم يكن هذا الهرم معبرا عبر عليه العقل الإنساني تلك الهوة المظلمة التي تفصل الحياة والموت ، ألم يكن

هكذا الصرح الخالد الذي لا يساميه صرح آخر في الوجود رمزاً عظيماً لما رسخ في أذهان هؤلاء المصريين ، عن مكانة الحياة الأخرى بالقياس إلى هذه الحياة الدنيا — هذه المكانة التي أكدتها كل الأديان والشرائع والفلسفات — أليس كل الفرق بين تعبير هؤلاء وتعبير هؤلاء أن فكرة الأديان والشرائع والفلسفات وصلت إلينا مستورة على الأوراق ، وأن المصريين القدماء عبروا عن فكرتهم بهذا الرمز الخالد الذي لا تخطئه العيون والحواس ...

دعني أيها الزمن مادمت لا تجيب أسأئل هذا الهرم ... القائم كالطود الذي يرسل ظلاله إلى الوراء كموكب خالدمن مواكبك .. دعني أسأئله عن قصة الروح والفكر كما رآها وشهدها واستمع إلى صوتها على هذه الأرض ...

هاهي ذي أصوات الكهنة تتصاعد من هذه المعابد الكثيرة المنتشرة في أنحاء الوادي ، وتمضي متعثرة إلى السماء تحاول لأول مرة من تاريخ المعرفة الإنسانية أن تصل هذا السكون الزائل المتغير بأصل السكون والكائنات .. وتخلق مقاييس ومبادئ للحياة والأخلاق ليسير عليها كل من أراد أن يتحدد بهذا الأصل الأبدي ..

وهاهى ذى أصوات الفلاسفة الأسكندريين تخرج على العالم
بفلسفة جديدة - تحمل الطابع الفكري لهذا الوادى - طابع
المزح والإتحاذ - فتحاول فى عبارات جديدة أن تصل السماء
بالأرض، وأن تقارب البعد بين صوت الأرض كما عبر عنه أرسطو
وصوت السماء كما نطق به أفلاطون... فهل كان فى وسع فلسفة
كهنه الفلسفة أن تعيش فى مكان غير هذا المكان.. وعلى أرض
غير هذه الأرض، لا أعتقد، ذلك ما يحدثنى به قلبى...

ثم هاهى ذى أصوات رهبان المسيحية المتبتلين - يرددون فى
همس وخفوت - فى جوف الصجرء - شريعة المسيح، فى الوقت
الذى كانت تطاردها فيه ظلمات الوثنية فى الغرب، وهكذا حفظت
هذه الصجرء تلك الشريعة السمحة لتنتفع بها الإنسانية كلها
بعد حين...

وهاهم الأعراب يهبطون على الوادى مكبرين بالدين الجديد،
وهاهم أولاء يتركونه وديعة بين يديه، فيصبح على مر الأيام والعصور
سيفه ودرعه اللذين يزود بهما كيد الكائدين.

إن هذا الهرم وحده، الذى شهد هذه الحوادث، وشهد
كثيراً غيرها من الأحداث العظيمة التى مثلت على مسرح هذا
الوادى الخالد، والتي غيرت مجرى الحضارة الإنسانية على مدى

العصور، هذا الهرم وحده، هو الذى يستطيع أن يحدثنا فى صدق
هن جوهر الحياة المصرية القديمة وكنهها، وأن يحدثنا فى صدق عن
كل مذهب على هذا الوادى، وعن كل ما تنفس عليه من أمجاد،
وأناسى، وحوادث، وفلسفات...

* * *

لقد طافت هذه الأفكار والخواطر بعقلى المتعب الكليل وأنا
جالس على سفح الكثيب، أتأمل الأطلال والآثار، ولم أشعر
أن الوقت مر فى سرعة إلا عندما نظرت صوب الغرب فرأيت
الشمس قد انحدرت وراء الرمال، ورأيت أشباح الليل تزحف على
الأرض من أقصى الشرق.. لقد أحسست بدوار يعصف برأسى،
وشعرت بثقل يهبط بجفونى - فاضطجعت بجنبى على الرمال وأغمضت
عينى مستسلماً للكلال... وكان آخر ما وصل إلى حواسى قبل أن
أغفو أصدااء تلك الأصوات التى يرددها المارة من بعيد وهبات
النسيم التى تمس سفح الكثيب مساً رقيقاً - لقد جاءت إلى، كأنات
أخيرة لهذه الحياة الخصبه الفياضة التى تصورتها منذ لحظة تدب على
هذه الأرض...

ولا أدري كم استمرت غفوتى ولكنى أذكر أننى استيقظت
على صوت عذب جميل يعنى فى أذنى لا أعرف من أين يصدر،
فرحت أتلهس موقعه حولى فى كل مكان، فلم تقع عيني على شيء،

وحين أصغت السمع ، سمعت الصدى يردد من بعيد في خفوت
بوضرعة هذه الكلمات :

.. أيها الإله القادر على كل شيء ، يامن وهبني قلبي -
وجعلت مدى ما يذهب إليه فسيحاً لانهاية له ..
يزرى بالعقل ومداه
إنك أيها الإله ، لم تدعه يمضي في مداه بغير نور ...
ولسكنك أوقدت له مشاعل الحب ، والأمل ، والإيمان .
فمضى يخطر في الضياء ويزهو بالسعادة .
لقد عشت إلى يومين بالأمل والإيمان وحدهما ،
كان الأمل يخبو بين حين وحين ...
وكان الإيمان يتأرجح ذات الشمال وذات اليمين ..
ولكن عندما أوقدت - أيها الإله - شعلة الحب في قلبي
أصبح للأمل نوراً يملأ فضاء الأرض وينفذ إلى السماء ،
وتمكن الإيمان في النفس - فأمنت بما لم يؤمن به بشر .
أنك ستفتح لي مفاتيح الأرض الثانية ، لأمضي مع الجيب -
أيها الإله القادر على كل شيء ، هذا أملى قد بلغ مداه
بوها أنا أصلى لك ... كما تأتي إلى قلبي الصلاة ،
فتقبلها يا إلهي ، فإني مؤمنة ، مؤمنة
وإن كنت لا أعرف كيف تؤدي الصلاة

... وما أن فنى ترديد هذه الكلمات ، حتى أطبق على الصحراء
سكون رهيب ، ما لبث أن اختلط في حواسي ، بهذا الضوء الشاحب
الذى يسكنه القمر على الرمال . واستدعى هذا الصوت الغريب ،
المجهول — في خيالي ، كل أشباح الماضي ، فحين سرح بصرى —
هذه المرة — على الساحة لم أرها مقبرة عبثت بها يد الإنسان والزمن ،
فبعثرت أشلاءها هنا وهناك ، على هيئة تقذى العين ، بل رأيت
الحياة قد أرتدت إلى كل شىء فيها . . . إنجابت الرمال التى سفاهها
الزمن عن الآثار المطمورة فنهضت واقفة وقد ارتدت أزهى حللها
وأبهاها ، وقامت الأطلال والمعابد المهدامة تجمع أشلاءها المتناثرة
المبعثرة ، وعادت الترتيلات تتردد فى أنحائها محملة بالبخور والأسرار ،
ووقفت المعبودات الصامتة تتأمل الناس يروحون ويحيئون
— فى صمت — وهم لا يرفعون أبصارهم إليها ، ومضت عربات
الفراغنة ، يلعب ذهبها فى وهج الشمس ، تترقع على الطرقات
الحجرية — وحين امتلأت حواسي ومخيلتي بهذه الأصوات
والأشباح شعرت بالرغبة والخوف ، فأغمضت عيني لئلا تطردها
بعيدا عني ، ولكن لشد ما أفرغني ، أن رأيتها تطاردني فى الظلمات —
نهضت وأنا ذاهل عن نفسي ، ورحلت أدرج على الرمال . . نقل
قدمي فى سكون . . . ثم مضيت أجد السبيل ، وأسرع الخطى ، كلما

بتعدت من ذلك المكان الرهيب ، وحين وصلت إلى رأس الطريق
الصاعد إلى هذه الصحراء .. استأنست برأى الناس وأصواتهم
فتموقت برهة أستجمع فيها حواسي ، وأطرد تلك الأشباح التي
كانت تلاحقني ... ثم مضيت أميط إلى المدينة .

شعرت وأنا أسعى في الطرقات المتلاثلة بالأنوار ، أن
عقلي وحواسي يزخران بأشياء كثيرة .. ورغبت في السعي إلى
طبيبي لأفرغ بين يديه ما تمتلئ به حواسي وعقلي ... فمضيت إليه ...
ولقيني الرجل بنظرات غريبة ، لم أعتدها فيه من قبل ، لقد
ظل لحظة يتأملني ، ولا يرفع بصره عن وجهي ومالبث أن سألني ..
- أين كنت ... ؟

قلت : في الصحراء ..

قال : إلى هذا الوقت .

قلت : أجل ..

ثم سكت لحظة وقال : هل ، تود أن تحدثني عن شيء .. ؟

قلت : أجل .. أريد أن أحدثك عن أشياء كثيرة ...

قال : حسنا .. تعال .

ومضيت في إثره حتى جلس إلى مكتبه فأخذت مكانه ألامه ..

ونشر أوراقه وقال :

— ها أنا ذا مصغ إليك ..

قلت : لقد غفوت لحظة على الرمال ... ولا أدري ماذا حدث
بعد ذلك ... هل كنت أحلم أم أننى قد انتقلت بذاتى
إلى عالم جديد ، لقد اختلطت الحقيقة والحلم فى عقلى
وخيالى كما لم يختلطا فى أمر من الأمور ... أجل
انتقلت إلى عالم آخر ... سعيت فيه بقدمى هاتين ،
وتنسمت هناك من أجواء تختلف عن جو هذه
الأرض ... استمعت إلى أصوات كثيرة تتحدث
بالحب والأمل ... رأيت الآلهة القدماء ، فلم أجدهم على
شئ من القسوة والجبروت — كما صورهم التاريخ —
لقد رأيتهم يهدرون عمل ملك عظيم ومجده ، ويتحدثون
عن الإنسان حديث مودة وأخاء ... رأيتهم يقذفون
قلب قى فنان أحب إحدى الملكات إلى جنات النعيم ...
قال الطيب فى عبطة : هل فى وسعك أن تسترجع ما رأيته
من هذا الحلم .

قلت : هل تعتقد أن ما رأيته كان حلما ... ؟ !

قال : أجل

وساد الصمت لحظة — رحت أسترجع فيها هذه الجوادث

والرؤى حتى وضحت الصورة كاملة فى ذهنى وذاكرتى .. وبدأت
أحدث الطبيب عنها ، وظل الرجل يسطر هذه الحوادث والرؤى
كما رويتها له ، وحين دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، كنت قد
فرغت من سردها ، فوضع قلبه وقال : شكراً
قلت : لقد أعجبك ياسيدى ...

قال وهو يتأمل الأوراق : كلا .. كلا .. إننى مسرور غاية
السرور .. لقد وصلنا إلى نتيجة طيبة .. وأعتقد أنه سيكون فى
وسعى أن أضع يدى الآن فى يسر على ممكن الداء فى حياتك ..
قلت متعجبا : إننى لا أستطيع أن أدرك ... كيف تصل هذه
لحوادث والرؤى بحياتى ... ؟

فابتسم وقال : وسيزداد عجبك إذا قلت لك ، إننى عرفت قصة
حياتك كلها ، ماضيك وحاضرك ، وما تستهدفه فى مستقبل
أيامك .. بل عرفت أيضاً ما يخفى عليك أنت من حياتك ..
قلت : إننى لا أرى أية صلة ... أوكد لك أنه لا توجد أية
صلة وإلا لحدثنى أية صلة تربطنى بهؤلاء الفراعنة القدامى ، وما
علاقى بهذا الفتى المثل الذى أحب الملكة .. وهؤلاء الآلهة
لا يمكن أن تزعم أن شيئاً يصلنى بهم .. إن الإيمان بالله يغمر قلبى ،
ولم تخالجنى قط فى حياتى فكرة الشرك به .. أقسم لك على ذلك .

فضحك وقال — لا تنظر إلى هذه الأشياء على هذا النحو ..

وأرجو أن تدع الامر لي ..

إنصرفت أفكر فيما قال الطبيب وفيما حدثته أنا عنه — لقد
أجهدت نفسي وأنا في طريق إلى داري ، في التماس الصلة بين ما
حدثني به وما رويته له .. ولم أكن قد اهتمديت بعد — وأنا في
فراشي — إلى سبب يمكن أن يدني أحدهما من الآخر ثم ما
البثت بعد لحظات أن استسلمت للنوم .

مضت شهور الشتاء ، وبدأت عناصر جديدة تدخل في حياتي ،
فتسكبت في نفسى الأمن والسلام . وما انتصف الربيع حتى أحسست
أن حياتي بدأت تشرق على فجر جديد كله نور وأمل . . لقد سكنت
العواصف التي كانت تعصف بوجودى وكيانى ، وصمت الرعد الذى
كان يتردد فى نفسى ، وخبا البرق الذى كاد يخطف بصرى ويتركى
كمجنون يتخبط فى الظلمات . . لم أكن أعلم أن فى الوسع أن تتبدل
حياة الإنسان هكذا من حال إلى حال . . ولم أكن أدري كيف
تصمت هكذا فجأة من حياته كل أسباب الألم واليأس والضيق ،
فلا يرى فى الحياة إلا بواغث الأمل والبهجة والسرور . . لقد خيل
إلى أن عصا سحرية قد مست حياتى ، فأحالت الجذب إلى خصب ،
والقحل إلى اخضرار ، وليس غير السحر ما يستطيع أن يبدل
هكذا ، وفى سرعة ، حال الأشياء والكائنات ! . .

كنت أجلس ذات يوم فى دارى أصغى إلى قطعة من موسيقى
« شوبير » وأفكر فيما تبعته الموسيقى فى نفسى . . أفكر فى هذه
السماوية التي تعيها كل الآذان والقلوب فى بساطة ويسر . .

والتي تسمو على القومية والعنصرية وغيرهما من هذه الدعاوى -
التي تستحوذ على عقول الناس ، فتجعل لكل منهم مقياسا خاصا ،
يزن به الأمور والأشياء . . إن القطعة الموسيقية الرائعة ، لا تكاد
تذاع حتى تصبح ملكا للإنسانية بأسرها ، وتراثا لكل الأجيال ،
حتى ليخيل للمرء أن الموسيقى ليست نتاجا إنسانيا يخضع لظروف
المجتمع والبيئة التي يخرج منها . . ولكن يخيّل له أنها وحي يهبط
من السماء كما تهبط الرسالات ، يتلقاها العباقر ، كما يتلقى الرسالات
الرسول . . وعندما يتحدث هؤلاء وهؤلاء بهما إلى الناس ، لا
يتحدثون بهما إلى شعب أو إلى جنس ولكن إلى الإنسانية بأسرها ،
اليس كل ما يهبط من السماء ملكا للإنسانية كلها ؟

مكثت لحظة أصغى إلى الموسيقى التي تتردد حولي ، فتملأ
المكان بكل أسباب الروعة والجمال ، وتدفع عن المرء كل هذه
الاثقال التي تحول بين روحه السماوية وبين الانطلاق إلى
أجواء السحر والخيال . جلّت قدرتك يا إلهي . . لقد شئت
أن تجعل أعظم أسباب سعادتنا في تلك الأشياء التي نتحدث إلى
أرواحنا لا إلى أجسادنا . . وجعلت هذه الأشياء في متناول كل
خلقك ، ففي وسع كل فقير معوز ، منهم أن يرفع بصره إلى السماء ،
أو يصغى إلى الطير ، أو يتأمل في مفاتن هذه الطبيعة ، أو

يستمع إلى الموسيقى ليرى هذه الأشياء تتحدث إلى روحه فتملأ
نفسه سعادة وتفيض عليه السكينة والسلام وبالقدر الذى تقدر عليه
القنسا طير المقنطرة من الذهب والفضة ، التى تدخل فى حوزة الغنى
الموسر

كنت غارقا فى تأملاتى مسلها خيالى لهذا الجو الموسيقى الساحر
حين فوجئت بمرأى صديق الطبيب واقفا أمامى وقد انطلقت
منه ضحكة عالية — فنهضت وسلمت عليه وقلت مداعبا : أهكذا
يقتحم الاطباء البيوت الآمنين بغير استئذان ..

فقال : ومتى كان لك بيت فيقتحمه الناس .. ألا تعلم أن كل ما
فى هذا البيت من صنع يدي .. وأنى أمتلك فيه أكثر مما تمتلك أنت
هذه الموسيقى التى تستمع إليها ، أنا الذى أدخلتها فى هذا البيت ...
وأقبلت زوجى على صوته فرحة مغبطة ، فسلمت عليه وتوجه إليها
صديق وقال :

— ألا تقرين أنت ، أننى أمتلك فى هذا البيت أكثر مما يمتلك
زوجك ، وأن كل ما دخل فيه من سعادة وهناء ، وموسيقى من
صنع يدي ..

قالت : نعم هذا حق ...

قلت : ما شاء الله ... بقى ان تقرى بأنه هو الذى أدخلك ايضا
فى هذا البيت ..

قالت : وهل في هذا شك ... ؟
وسمعت ضحكهما يتجاوب في أنحاء البيت .
قلت : فهي مؤامرة ، قد حيكتم بينكما بمهارة وكنت أنا ضحيتها ..
فقالا معا : أجل .. لقد كنت ضحيتها البريئة .
واحتوانا تلك الليلة جو من السعادة ، تحدثنا وضحكنا ،
والستعدنا ذكريات الأيام الطيبة .. وبدأ كأن في وسعنا أن نملأ
الديناسعادة ، مما فاض على نفوسنا من بهجة وسرور ...
وحين رغب صديقنا في الإنصراف قال : لقد حملت لك
هدية ، لا أدري أتحوز بعض رضا كما أم لا .. ؟
قلت : يجب أن نراها أولا ...
قال : حسنا .
وأخرج من حقيبته بعض الأوراق وقدمها إلينا ، فقلت :
ما هذا ؟
قال : هذه قصة حياتكما .
قلت : حياتنا ؟
قال : أجل .. ولكن بلغة الاحلام
قلت : زدنا إيضا
قال : لن أزيد شيئا .. إنك تناسى الآن كل شيء ، أنسيت

تلك الليلة التي سهرت فيها أمامك إلى منتصف الليل أسجل هذا الحلم الذي رأيته في الصحراء.

قلت: ولكنني لا أذكر شيئا عن هذا الحلم... لا أذكر... أقدم لك..

قال: يمكنك أن تستعيد ذكراه بقراءة هذه الأوراق وأن تشارك معك زوجك.. لقد قلت إنها قصة حياتكما بلغة الأحلام ويجب ألا تسلبا نفسيكما للغرور حين تستعيدان هذه الرؤيا. لأن لغة الأحلام كلها رموز وأسرار وشطحات... وليس لكما أن تحملا هذه الرموز أكثر مما تحتمل... إن لهذه الرموز دلالات لا يعرفها إلا الخبير.. فلا تحاولا تفسيرها بما تهوى نفوسكما

قلت: وماذا عليك لو أعطيتنا مدلولات هذه الرموز ومعانيها لنعرف القصة على حقيقتها

قال: وماذا يبقى لي لا كل به خبزي... ولميزني عنك وعن غيرك من عامة الناس

قلت ضاحكا: لا شيء طبعاً..

قال: بقيت كلمة أخيرة.. أحب أن أقيها عليكما قبل أن انصرف — لقد مهد لي هذا الحلم سبيل الجمع بينكما، حين بدا لكما كليكما أن كل شيء قد قطع إلى الأبد... إنه جدير بأن يخلد من حياتكما، جدير بأن تنزله بين ذكرياتكما أعز مكان...

ثم صاخبنا وانطلق .. ونحن ترمقة بنظرات المحبة والأعزاز
لقد كان ، وظل دائما ابداً ، بسلوكه وتصرفه نحونا في موضع يسمو
دائماً على كل شكر مهما بلغ ..

لم ادلس على صديق موقفي — من هذه القصة التي حملها إلينا.
حين أخبرته اني لا أذكر شيئاً عنها .. وفي الحق أن قصة هذه
الليلة وهذا الحلم قد تلاشت تماماً من ذاكرتي ..

لذلك شعرت بشوق بالغ — شاركرتني فيه زوجتي —
لقرائتها واسترجاع حوادثها — وكان ان ندرنا تلك الليلة لتخليد
هذا الحلم فقمنا ونشرنا الأوراق أمامنا وبدأنا نقرأ ما سجلته ..

* * *

كنت أرق على سفح الكشيب ، عندما شعرت بيد رقيقة تهزني
في رفق ، فاستيقظت وفتحت عيني ، وعجبت حين رأيت بصرى
حييسا في سجن من الظلمات ... فلم أستطع أن أرى شيئاً أمامي
خبت أنوار المدينة التي كانت تلمع منذ حين ، واختفت المعابد
والاهرام والاطلال . كأنما ابتلعها ظلمات كثيفة مالهها من قرار ،
أحسست بالرغبة والخوف . وخطر لي أن التمس الفرار من هذا
السكون ومن هذه الظلمات ، فنهضت وبدأت أدور بطرفي انحاء
الصحراء ... ولشد ما أدهشني ان رأيت ضياء خفيفاً كضياء الغسق
ينبثق من وراء الكشيب ... ورحت وأنا لا أدري إلى أي

مسير تقودنى قدماى أنطلق صوبه ، أنطلق الفراش إلى النور
وحين بلغت قمة السكيب توقفت لحظة ، أتأمل في عجب ودهشة
إلى هذا النهار الذى بدأ يشرق على المكان ، فى ذات الوقت الذى كانت
الطلبات تقف فيه خلنى بكل ماتحملة من رهبة ورعب
أغرانى النور بالسعى إلى هذا المكان ، فرحت أهبط
إليه ، وشعرت وأنا أنحدر ببرودة الرمال تسرى فى قدمى وتبعث
القشعريرة إلى جسدى .. وحين استقرت قدمى على الارض السواء ،
أحسست بنسيم بارد يهب على وجهى كهذا النسيم الذى تبعثه القبور
على وجوه الأحياء ، وقفت أتأمل المكان رأيت الشمس تسعى فى
بطء عند نهاية الأفق وتمضى صاعدة إلى السماء .. ثم رأيت
الأرض تتفجر حولى من كل مكان ، فيخرج منها عدد لا يحصى
من الخلق ما أن تلقاهم أشعة الشمس حتى ينهضوا واقفين ، وينفضوا
عن ملابسهم غبار اكغار القبور ، ثم لا يلبثوا أن يولوا وجوههم
شطر الغرب ويسعون خفافا كالأشباح ، وأبصارهم معلقة بالشمس ،
بقيت لحظة واقفا فى مكافى كأنما سمرت أقداى الى الأرض ، وفيما
أنا كذلك شعرت بيد تقع على كتفى ، فتلفت ورائى فرأيت رجلا
غريب الهيئة يقول لى : لماذا تقف هكذا ... ولا تمضى مع
الموتى فى موكب الشمس ... !

قلت : مرقى .. ماشأنى بالموتى حتى أمضى معهم ؟! ..
فتفرس الرجل لحظة فى وجهى ، وقال « الا تدرك أين أنت ..
كثيرون مثلك يؤثر فيهم البعث ... انك الآن وراء الأفق
الغربى .. »

قلت : وقد بدأت أحس بحر جى : « اننى لا افهم شيئاً » .. ؟
فقال الرجل : أنت الآن فى الارض الثانية ، أغنى أرض
الأموات حيث حقول ياور وملكه اوزيريس - وهؤلاء هم
الأموات على الأرض الشرقية قد بعثوا من جديد ..

قلت : ومن تكون ... ؟

قال : اننى دليل الموتى على هذه الارض ..

وبينا كان الرجل يلقى الى هذا الحديث الغريب .. وصلت الى
أذنى أصوات مزامير وغناء منشدين ، ورفع الرجل يده الى أعلا
وقال « انظر .. »

فرفعت بصرى حيث أشار فشاهدت زورقا من ذهب يلمع
فى اشعة الشمس ويسبح فى الفضاء تجره جماعة من الناس وتسير
خلفه فرقة من المنشدين .. ! فسألت الرجل .. « ما هذا ؟ »

قال : ذلك « مركب رع .. الإله الأعظم على هذه الارض .. »
فعدت اتأمل الزورق من جديد ، وتابعته ببصرى وهو

يسعى في فضاء السماء ، حتى رأيتُه يقف تحت الشمس . . . عندئذ
تهضت منه أفعى هائلة ورفعت رأسها في الفضاء ، ثم مضت تنثنى مرة
أخرى فتلتف حول الشمس وتحيط بها من كل جانب

قلت : ماذا تفعل هذه الأفعى ؟

قال : إنها تلتف حول الإله الأعظم لتحفظه من الأرواح
الشريرة . . . !

قلت : فالآلهة هنا يخشون على أنفسهم من الأرواح الشريرة !..
فماذا يفعل البشر . . . ! بالله دلتني على طريق الخروج من هذا
المكان .

فرمقني الرجل بنظرة حادة ثم ترأى ومضى في سبيله ، لم أدر
ماذا أفعل . . . فكرت في الفرار من هذا العالم الغريب ،
قدرت نحو الشرق حيث تركت الظلمات ، وحاولت العودة ، ولكن
لشد ما أذهلني أن رأيت قدمي تخذلني ، فتأبى أن تخطو خطوة واحدة
إلى الأمام ، حتى كدت أسقط على وجهي ، حين بدا لي أن أقصرها
على الخطو ، وحين يمت وجهي مرة أخرى صوب الغرب
رأيتها تطاوعني على السعي والمضي ، وقفت لحظة ساكنا وقد ملكت
الحيرة أمري ، وفيما أنا كذلك ، وصل إلى أذني نشيد المنشدین ،
يوهم يرددون :

« ... تباركت يارب النور
ها أنت تشرق علينا بالحياة ...
وها هو جليد نهرنا الأبدى يذوب تحت أشعتك
وها هي كل الكائنات تسعى في موكبك
تشكرك وتسبح لك ...
فالزهر تفتح وأشرق بالشكر
والطير يرقص ويغنى لك بالحمد
وعما قليل ، تقف على قصر العدالة
فيستمد منك أوزيريس ، رئيس أهل الغرب
قبسا يبعثه إلى كل قلب ،
فيرى على ضوئه موطن الحق ومكمن الباطل
... إن عالمنا الذي لا يتطالع لشيء غير الحق والنور
يسبح لك يا كاشف الحق ومبدع النور ..
يسبح لك مع ديب الحياة ومسرى الضياء
... تباركت يارب النور »

ومضى الزورق يسبح في فضاء السماء ، تشده في بطاء ثقيل

خيوط النور الذهبية التي بعثتها الشمس إلى كل مكان ، وظل
النشيد يتردد على فضاء الأرض ، والأموات يسعون زرافات
شطر الغرب وهم ينبعون الزورق السابح بأبصارهم — وبعد لحظة
أقفر المكان من حولى ، ورأيت الرجل الغريب الهيئة واقفاً مرة
أخرى أمامى وعاد يحدثنى بصوته الرهيب « لماذا لا تمضى فى
موكب الشمس مع الأموات .. هل أنت روح شريرة غريبة عن
هذه الأرض .. ؟

قلت : كلا .. كلا .. إننى بشر ..

قال : ألا تخشى العدم أن يطبق عليك مع هذه الظلمات
التي تزحف خلفك على هذه الأرض ..

قلت : ولكن ماذا عسائى أن أرى أمامى ..

قال : خير لك أن تسعى إلى المجهول من أن تسلم نفسك للعدم ،
إن الأرواح الشريرة تعيش دائماً فى الظلمات ..

ثم تركنى وأختفى كما تختفى الأشباح ، نظرت خلفى فرأيت
ظلمات رهبة تزحف على صفحة الأرض ، وعادت كلمات الرجل
الأخيرة تتردد فى عقلى .. « خير لك أن تسعى إلى المجهول من أن
تسلم نفسك للعدم » لقد اخترت السعى إلى المجهول — وبدأت أمضى
لألحق بالأموات ...

قطعت شوطاً طويلاً وأنا أجد السير للحاق بهم ، حتى رأيت
العرق يتصبب من جبينى ، وشعرت بالتعب يكاد يقعدنى عن متابعتهم ،
وبينما كنت أنقل قدمى فى عسر على الرمال ، لمحت من بعيد شجرة جميز
كبيرة تنقف فى وسط هذه الرمال ، كما تقوم الواحة الخضراء فى قلب
الصحراء ، ففرحت بمرآها وأسرعت بخطاى كي ألوذ بها من وهج هذه
الشمس ، وأنفض فى كنفها بعض ما أثقلنى من كلال وتعب ، وحين
وقفت على بعد خطوات منها ، راعنى ما رأيته من إتساع رقعتها
وضخامتها - لقد حاولت وأنا أرسل بصرى إلى غاية مداه أن
أدرك نهايتها ، فما استطعت - ولفت نظرى منظر غلمان صغار
يسعون فى ظلالها ، بين أيديهم آنية من فضة ، يحملون عليها خمرآ
وخبزاً وثماراً من ثمار الجميز فى لون الذهب ، ثم يمضون بها إلى أناس
كثيرين يسمررون ويمرحون فى ظلالها ..

مضيت أسعى إلى الظلال الممتدة حول الشجرة والكنى
ماكدت أخطو خطوة واحدة داخلها ، حتى رأيت عبداً عملاقاً
يندفع إلى ناحيتى ولا أدرى من أين هبط ، يمنعنى يديه أن أمضى
خطوة أخرى إلى الأمام وسمعته يقول : « ماذا تريد .. ؟ »
قلت : أريد أن أقضى بعض الوقت فى هذا الظل وأطعم
بشئ من هذا « الجميز » .

قال : هل قضى أوزيريس لك بهذا ؟

قلت : من أوزيريس هذا ؟

قال فى عجب : ألا تعرف أوزيريس .. !

قلت : كلا

قال : عجباً .. لعل نور « رع » لم ينفذ إلى قبرك إلا اليوم
يبدو عليك ، أنك ممن أثقلتهم الخطايا ..

قلت : ويحك ما شأن نور « رع » بخطايا الناس

قال : كمن يقرأ فى سفر مقدس : بعض الأموات تملأ
ظلمات الخطايا قبورهم — هؤلاء قضى عليهم أن يمضوا فى الظلمات
حقبا طويلة ولسكن نور « رع » سينفذ إليهم فى يوم من الأيام ليبدد
هذه الظلمات ، فيبعثون ويجزون عما قدمت أيديهم فى الحياة الأولى
قلت : دعنى بالله ، فما يعنينى شئ مما تقول ، وحسبى أن أطعم
بعض هذا الجميز ، وأجلس لحظة فى هذا الظل ..

قال : ذلك عليك بعيد ..

قلت وأنا أشير يدي إلى القوم الذين يجلسون فى ظلالها —
ولسكن ما بال هؤلاء القوم ...

فقاطعتى بقوله : هؤلاء هم الممجدون الذين قضى أوزيريس
ببراءتهم ، وهذه شجرة الحياة ، يجلسون فى ظلالها ، يأكلون الخبز

ويشربون الخمر ويطعمون من ثمرتها الخالدة التي ترد عليهم شبابهم
غضاً زاهراً ...

قلت : وماذا يفعلون بشبابهم الغض الزاهر هنا أيضاً ... !
فقال : أنظر ..

ووجه بصرى إلى غدير صغير يمر تحت جذع الشجرة من
ناحية الغرب — تلعب مياهه من بعيد كالفضة الصافية ، رأيت
رهطاً من العذارى والخور يرقصن ويسبحن على صفحته في سحر
وخفة ، وكانت حركاتهن المنسجمة الرشيقة تنشر في جو المسكن
نسima غريباً ، يبعث إلى روح الإنسان ، متعا لا يمكن تفسيرها بمعنى
من معاني هذه المتعاط والشهوات التي نحسها في دنيانا ، وحين لفتح
هذه النسيم وجهى شعرت بهزة تسرى في جسدى ورأى الحارس
حالى فقال : « إبتعد .. إبتعد ، ليس لك أن تقف هنا تمتع عينيك
بهذا الجمال ، وتنسم هذا النسيم قبل أن يقضى لك ، به أوزيريس ..
قلت : وأين ألقى أوزيريس هذا ... ؟

قال : فى قصر العدالة ..

قلت : إني لا أعرف مكانه ..

فقال : إمض فى طريقك هذا إلى الأمام ، وتابع السير حتى
ترى الظل قد تلاشى من تحت قدميك ، ستجد عندئذ أنك قطعت

تصف الطريق بين الغرب والشرق وسترى في هذا المكان الذى
تتلاشى عنده الظلال ، ولا يسطع غير النور قصر أعظما يهر
نوره عينيك ، لا تخبو أنواره فى أى وقت من أوقات الليل او
النهار — ذلك قصر أوزيريس الرئيس الأعظم لأهل الغرب ورب
العدالة على هذه الأرض . .

وتركنى واختفى فى ظل الشجرة . .

فمضيت على الطريق التى دلتى عليها ، أنظر تحد قدى من حين
إلى حين ، فأرى ظلى يقصر شيئاً فشيئاً ، حتى بلغت مكاناً رأيت فيه قد
تتلاشى عنده ، تلفت حولى فوقع عيني ناحية اليمين على قصر عظيم ،
ساطع الضياء ، يلمع بالنور .

وقفت أتأمل قصر العدالة - بدا النور الذى يحيط به ويشع
من جدرانه غريبا على عيني - فلم أر قبل اليوم نورا فى قوته وضياءه
وصفائه - رأيت الأموات يسعون إلى القصر على طريق فسيح
مرصوف بأحجار ناصعة البياض، يقوم على جانبيه صفان من العمد
الشاهقة الارتفاع، تربض بينها تماثيل صغيرة تحاكي كلها تمثال
أبي الهول ... وقفت لحظة أرقبهم وهم يمضون فى سكون وهدوء
لا تنطق ملامحهم بشيء، كأنما قدت وجوههم من الصخر - ولم أر
ما يحول بينى وبين السعى معهم، لأحظى بلقاء أوزيريس ولا أتمس
برأقى، فمضيت معهم على الطريق، حتى وصلت إلى باب القصر
وهناك رأيت أحجاره ذات النقوش الفرعونية ترتفع إلى أقصى ما يصل
إليه بصر الإنسان - وعندما جاوزت الباب وجدت نفسى وسط فضاء
مستدير يحيط به من كل جانب صفان آخران من العمد أقل ارتفاعا
وضخامة من تلك العمد التى شاهدها خارج القصر . وكان الفضاء
يتدرج من جميع جوانبه بثلاث درجات واسعة من أحجار
الجرانيت . وكان لون العمد والدرجات على اليمين أخضر ناضرا

أما على اليسار فكانت حمراء ، كأنما يتصاعد منها لهب محرق .
واطمان بصرى إلى لون الخضرة ، فاخترت المضى الى ناحية اليمين ،
وعندما صعدت الدرجات الثلاثة وجدت أمامى ثلاثة أبواب
كبيرة يقبل الناس عليها . ويخرجون منها أفواجا أفواجا . .
وخطر لى أن أستيقن من هذا المكان قبل أن أنطلق اليه . .
فانتظرت حتى أقبل رجل بالقرب منى فاستوقفته وسألته : « هل
يمكن ياسيدى أن تحدثنى عن هذا المكان . . ؟ »

فنظر الرجل فى وجهى لحظة من الزمن وقال : لعلك لم تبعث
إلا اليوم ؟

قلت : هكذا يبدو . !

قال : إن أوزيريس يعرض فى هذه القاعات بعض ما يلقاه
المبعوثون على الأرض الثانية ، سترى على اليمين بعض ما يلقاه
الآبرار - وسترى على اليسار بعض ما يلقاه الأشرار .

قلت : تعنى الجنة . . والجحيم ؟ .

قال : كلا . . كلا . أنها نماذج من العقاب والثواب ، يراها
الموتى قبل أن يقضى لهم أو عليهم بشىء منها .

قلت : ففى وسعى إذن أن أمضى فأرى ماتحويه هذه القاعات
وأنا آمن على نفسى ؟ .

قال وهو يتفرس في وجهي : أجل . !

ثم تركني وانطلق في سبيله . فسعيت إلى القاعة الأولى — وماكدت أخطو خطواتي الأولى داخلها حتى جاءت إلى منها أصوات غناء وموسيقى غاية في الروعة والجمال ، فتوقفت لحظة وقد استجمعت حواسي كلها في أذني لتعترف من لذة هذه الموسيقى وسحرها ، ثم تقدمت وسرت في القاعة... سمعت الموسيقى تعزف في كل مكان على نهج بارع متسق ، رأيت في أقصى الشرق عازفا يسعى مع مطلع الفجر ، كأنه رائد النور الجديد ، يعزف موسيقاه الهادئة الناعمة ، كأنما يفتح العيون الوسنانة ، في رفق على الحياة والنور والأمل .

وفي ناحية أخرى غير بعيدة ، إشتربت الطبيعة بطيورها وبلابلها وخرير مياهها، وهدير أمواجها .. مع موسيقى في إخراج إحدى السيموفونيات ، إمتزجت فيها عواطف الإنسان ، ما يعتمل فيها من قوة وضعف ، بهذه الألوان التي تفرضها الطبيعة ، والتي تفرضها الحياة على الأحياء — فيستقبلونها أحيانا في رضا وأحيانا وهم لها كارهون — والموسيقى تعبر عن هذا المزيج العجيب في نغم أخذ مشير — تمزج اليأس بالأمل ، والرضا بالغضب ، والهدوء بالثورة، والمروق بالإيمان العميق .. لقد طافت بخيالي موسيقى تهوفن .

وفي ناحية الغرب رأيت منظرًا للشمس وهي تنحدر إلى المغيب
يودعها لحن حزين رقيق ..

مضيت أجدول في القاعة ، أتأمل ما فيها ، وأسمع ما يتردد في
أجوائها ، شاهدت طوائف من الفنانين يعملون في غبطة
ونشاط ، تلعب على وجوههم وفي نظراتهم ومضات العبقرية والألهام ،
ومن حولهم وبين أيديهم نتاج أعمالهم ، شعر وموسيقى وصور
وتماثيل غاية في الروعة والجمال ..

نظرت رساما يقف أمام لوحة ، لم تحف ألوانها بعد ، تصور
ملا كما يضرب على قيثارة ، يسبح في السماء ، تطل من بين شفثيه
بسمة مشرقة ، في الوقت الذي بدت السحب ذات الزرقة الخفيفة ،
كما لو كانت تتحرك في بطاء حوله ... تقدمت إلى الرسام وسألته :
« ما الذي ترمز إليه الصورة ؟ »

قال ، وهو يتأمل الملاك في زهو : ذلك هو الملاك الذي يعزف
للحن الذي يهب القلوب الحزينة العزاء والسلوى ..

ثم سكت لحظة ونقل بصره إلى وسألني « ألم ترى هؤلاء
الجزائي الذين فجعهم الزمان في أعزائهم وأحبائهم حين يسمون
ولم تسكد تحف بعد ، تلك الدموع المسكوبة من مآقيهم .. ؟ »
قلت : لقد رأيت منهم كثيرين

فقال ، وعيناه على الصورة : إن هذا الملاك هو الذى يحرسهم ويرعاهم

قلت : وأنا أملأ عيني من الرسم الجميل : لم يعد للمرء أن يعجب لحال هؤلاء القوم ما دام هذا الملاك هو حارسهم وراعاهم ...
ثم صاحقت الرسام ومضيت أسعى فى القاعة . ولفت نظرى وأنا أمضى ، منظر تمثال كبير لفتاة نيرة الوجه جميلة القسمات نشرت ذراعيها إلى أعلا عن أجنحة رقيقة -- وحين اقتربت منها ورفعت بصرى إليها ، خيل إلى أنها مغمضة العينين ، ولكن عندما تفرست جيداً فى وجهها ، بدت لى نظراتها الوديدة وهى ترتفع فى هدوء إلى السماء .. وأقبل إلى وأنا فى موقف أمام التمثال «نحات» متملىء الجسم ، فوقف يتلمس بنظراته موقع تمثاله على وجهى وفى عيني -- ثم قال وهو يشير إلى التمثال ! هل رأيت هاتين العينين اللتين تبدوان مغمضتين وهما ناظرتان .. ؟

قلت : أجل ..

قال : إنهما تنظران إلى أعلا كى لا تريا شيئاً من صغار الناس وضعف البشر .. تأمل هذه الابتسامة الهادئة التى تبعث الأمل إلى نفوس الخاطئين ، فتملأ قلوبهم أمناً ودعة ، ثم تأمل هذا الوجه السمع النبيل الذى يخفف مرآه ، وقر

الخطيئة .. وانظر هاتين الذراعين اللتين استعارتا أجنحة الملائكة، نشرت تود لو تستقبل كل الخلق ، إنها رحمة الآلهة التي وسعت كل شيء

وقفت لحظة أتأمل التمثال في إعجاب واتلس في قسماته هذه المعاني التي حدثني عنها هذا الفنان — وقلت أحدثه « في الحق لا يمكن أن تكون الرحمة شيئاً آخر غير هذا .. » ثم صافحته شاكراً ومضيت أسعى بين مناظر رائعة وأصوات موسيقية ساحرة ، وشعراء يلقون أشعارهم إلى الناس ، ويتقبلون منهم الإعجاب والاستحسان ، ولقيت وأنا أسعى ، حارس القاعة يمضي إلى جانبي حاملاً في يده عصا طويلة فسألته « .. من هؤلاء .. وما هذا المكان ؟ »

فقال : تلك جنة الفنانين ، الذين تعهدوا على الأرض شعلة الجمال ، ذلك القبس الإلهي الخالد ، لولا هم ما بقيت هذه الشعلة متقدة على الأرض على مدى الأجيال .. فشكرته وانطلقت إلى القاعة الثانية ، وفيما أنا أسعى إليها استرعى نظري منظر رجلين وامرأة يسرون جنباً إلى جنب وراء حارس يحمل عصا طويلة ، قد جاوز طولها قامته ، وكانت المرأة وأحد الرجلين ، يرتديان ملابس ملكية براقية ، ويحمل كل منهما على رأسه تاجاً ذهبياً على

هيئة زهرة اللوتس ، يسيران فى عظمة ووقار جديرين بالملك ،
لا بعامة الناس ، وعجبت لهذا الحارس الذى يمضى أمامهما غير
مكتر لما يرتديان ، ولما يبدو على وجهيهما من ملامح ملكية ...
ومر بجاني أحد الموتى فسأله : « من هؤلاء .. ؟ »

فقال : هذا الذى يسير فى المقدمة ، هو الإله أونوبيس
مدير دفن الموتى ، ودليلهم فى الآخرة ، وهؤلاء الذين يسعون
خلفه هم الملك خوفو ، والمثال مرى ، والملكة نفر تيتى ..

قلت : وإلى أين يمضى بهم هذا الإله .. !

قال : إنه يطوف بهم هذه القاعات ، قبل أن ينطلقوا إلى
أوزيرس ليحاسبهم عما قدمت أيديهم فى الحياة ، الأولى .. !

قلت : يحاسبهم على ما قدمت أيديهم متى ، وأين .. !

قال : اليوم فى القاعة الكبرى ...

قلت : وأين أجد هذه القاعة ؟

قال : ها هى ذى .. ثم أشار بيده إلى باب كبير يقع فى
الوسط بين قاعات النين وقاعات الشمال .

بعد ذلك ، مضيت ، فى أعقاب هؤلاء القوم إلى القاعة الثانية -
وهناك رأيت فضاء فسيحا لا تدرى نهايته الأبصار ، ولاح لى عن
قرب فلاح يقف وسط حقل من القمح ترتفع عيدانه حتى تكاد تغطى

قائمة الرجل ، فذهبت ووقفت أمامه ، رأيت يحمل منجلا يحركه يمنة ويسرة فيحصد قمحه في سهولة ويسر ، يطفح وجهه بالبشر ويغنى :
« الحمد للرع » الذى أعطى قمحى لونه الذهبى .

المجد « لأوزيريس الذى قضى ان احصد هذا الحصاد
... لقد فاقت عدالته الحدود ... ! »

سألت الرجل — هل أنت من الأبرار ... ؟
قال فى زهو : أجل ..

قلت : ولـكن مالك وهذا العمل — ألم يكن لك — إن لم
يكن من ذلك بد — أن تلتبس عملا آخر لا يكلفك كل هذا
العناء . ؟

قال : إننى لا أحس التعب أبداً .. هكذا قضى لى أوزيريس ..

ثم مد يده واقتطع سنبلة من سنابل القمح فركها بين راحتيه
ونفض أغلفتها الجافة وقال فى غبطة : « أنظر ... » وبسط كفيه
فرأيت حبوبا كبيرة فى لون الذهب تتجاوز المائة عدا ، ثم تابع
الرجل حديثه وقال — « لقد كنت فلاحا فى الدنيا .. وأنا هنا
أزرع وأحصد هذا الحصاد دائما أبدا .. لا ينالنى تعب ولا يصيبنى

كلال ... هذه جنتى التى أحبها » ثم تركنى ومضى يغنى ... درت
بعد ذلك ببصرى فى أنحاء القاعة ، فرأيت طوائف كثيرة من العمال

يعملون في يسر، فيرون نتائج أعمالهم موفقة ناجحة أعظم ما يكون
النتاج والتوفيق .. واسترعى نظري منظر زورق صغير يسبح
على صفحة ماء هادئة ، والنسيم يداعب شراعه الصغير ، وقد جلس
في مقدمه رجل يحرك مجدافيه في ببطء ، وجلس في المؤخرة رجل
آخر أمسك بطرف شباك الملقاة في اليم ، وهبت الريح فدفعت
الزورق إلى ناحيتي ، وجمع الصياد شباكاً وبدأ يستخلص منها
صيده تطل من بين شفتيه إبتسامة الرضا والسعادة - وحين بصر
في قال مزهوا « ... لقد كنت صيادا في الدنيا ، وكنت أقضى ليلى
وردها من نهاري أجوب بحيرات الدلتا ، ولم أكن أحظى بعشر
هذا الصيد الذي أصيبه في كل مرة أنشر شباكاً هنا ، إن
الريح تدفع زورقي حيث ترقد الأسماك ، وشباكاً برأيتها الذكية
تجذب الأسماك إليها ، وأنا لا ألقى تعباً ولا يصيبني كلال ...
بهذا قضى لي أوزيريس ... هذه جنتي » ثم انطلق يغنى وابتعد
الزورق كطائر صغير نشر جناحيه .

مضيت أبحث عن الحارس ، وحين لقيته سألته عن أمر هذا
المكان ، وهو لاء الناس فقال : هذه جنة العاملين .

قلت : ولكني لم أر أيها الحارس فيها إلا طوائف العمال
قال : قلت إنها جنة العاملين ...

ولم يزد، وتركنى ومضى فى سبيله .

غادرت هذه القاعة ، ومضيت إلى القاعة الثالثة ،
والأخيرة على ناحية اليمين ، وعجبت حين رأيت بابها مغلقا وقد
وقف الحارس أمامها يمنع الناس أن يسعوا على مقربة منها —
انتظرت لحظة حتى خلا المكان إلا منى ومنه ، فاقتربت منه وسألته :
« أليس لى أن أرى ما تحويه هذه القاعة »

قال : لا ...

قلت : لماذا ... ؟

قال : إن الآلهة الآن فى زيارة الأبرار

قلت : ذلك يغربنى أكثر برؤياها

قال : لا سبيل إلى ذلك

قلت : وهل يزور الآلهة القاعات الأخرى

قال : إنهم لا يزورون إلا هذه القاعة

قلت : لماذا ... ؟ ومن هؤلاء الأبرار الذين يشرفهم الآلهة

بهذا الامتياز .

قال : إنهم الشهداء ، الذين قتلوا على الأرض الشرقية ، وهم يناضلون

عن المثل والمبادئ الآلهية

قلت : ماذا تعنى بالمثل والمبادئ الالهية

فتفرس الرجل فى هيتى وقال : يبدو أنك ممن أثقلت روحهم
الخطايا .. !

قلت : لماذا أيها الرجل ..

قال : ألا تعرف لماذا .. ! لأن الآلهة حجبت عنك معانى
هذه المثل والمبادئ ..

قلت : إذن أكشف لى عنها أيها الحارس ، مادامت
الآلهة قد حجبتها عنى .. ماذا تعنى بالمثل والمبادئ الالهية

قال : إنها الحرية ، والحق ، والعدالة ..

قلت : فالأبرار الذين يعيشون داخل هذه القاعة هم شهداء
الحق والحرية والعدالة . ! ؟

قال : أجل شهداؤها على الأرض الشرقية ..

قلت : أليس لك أن تفسح لى فرجة من الباب ، فأنظر ما
يفعلون وسأمتحك على ذلك قطعة فضية — إن راقى منظرهم . !
فصاح الحارس : ماذا تقول أيها الميت .. ؟ الذى خسر حياته
ويريد أن يخسر موته أيضا .. أتريد أن ترشوقى سادعو الشياطين
لكى تأخذك بهذا الوزر العظيم ..

ومضى يبحث عن أحد الشياطين .. فأمسكت بتلابيبه وقلت

متوسلا : ... أسألك العفو أيها الحارس ، إننى لم أقصد إلى شىء
من هذا ... لم أقصد ... إننى غريب وهذا أول عهدى بهذا
العالم ...

قال : غريب .. من أين أقبلت .. ؟

قلت : من الأرض الشرقية — لم أقبل الا الليلة .. أعف
عنى ..

قال : ألم يحدثك حراس المقابر عن آداب هذه الأرض
وعاداتها ؟

قلت : كلا لم يحدثنى أحد عنها

فتوقف ونظر فى وجهى وقال : اذهب فقد عفوت عنك ..

لقد بدأ الحراس الآخرون يتخلون عن واجبهم

قلت : هل أذهب قبل أن أرى هذه القاعة ..

قال : فى وسعك أن تنتظر حتى يخرج الآلهة ..

فوقفت إلى جانب الباب ، ثم سمعت الحارس بعد لحظة يتنادى

ويقول « تعالى .. سأفصح لك فرجة صغيرة .. لتنظر القاعة .. »

فأسرعت إليه ، وأفصح الحارس فرجة من الباب وقال « عجل
النظر .. »

أرسلت بصرى إلى داخل القاعة فرأيت مكانا مرامى الأطراف

تظلل سماءه خضرة يانعة تضفي عليه لوناً هادئاً جميلاً .. سألت
الحارس « أين هم الشهداء الأبرار ؟ »
فأطل الرجل معي من الفرجة وقال وهو يشير إلى ركن
قريب ..

— ها هم أولاء يسعون جنباً إلى جنب مع الآلهة ..
قلت : من منهم الأبرار ومن الآلهة ؟
قال : هؤلاء الذين يضعون أكاليل الغار على رؤسهم هم الأبرار
كانوا أربعة ، تأملتهم وهم يقتربون .. فرأيت نورا قوياً
يسطع من وجوههم ، ويترك حولهم هالة من الضياء .. فقلت
أسأل الحارس : « ما هذا النور ؟ »

قال : إنه حب المثل والمبادئ الإلهية ، قد خطه الآلهة
على وجوههم وملاحهم بحروف من نور قدسى يسطع أمامهم دائماً
أبدأ لبيد ظلمات الشك والتردد والوهن ..
قلت : لقد حببت إلى هؤلاء القوم .. أريد أمضى إليهم
فانظر في وجوههم من قريب ..

قال : لا يمكن مادام الآلهة معهم
قلت : ومتى يرحل الآلهة .. ؟

قال : من يدري ! إنهم لا يجدون أطيب من هذه القاعة مكاناً
يقضون فيه أوقات فراغهم .. لقد شرف هؤلاء القوم وجوههم

الإلهي حين أبوا أن ينزلوا عن شيء من صفاتهم الآلهية .. وحين
ضحوا بأجسادهم الترايبية .. ألا ترى أنهم جديرون بالتشريف
والتكريم حتى من الآلهة أنفسهم ..

قلت : نعم إنهم جديرون بكل هذا
والتفت الرجل ورائه فجأة وقال في خوف - إمضى ..
إمضى أرجوك .. إن كبير الحراس مقبل

ثم سد الفرجه ووقف أمام الباب ، فابتعدت عنه ورحلت
أهبط الدرجات وفيما كنت في طريقي رأيت أحد الأموات يسير
إلى جانبي فضمينا نتحدث فيما شاهدناه في قاعات اليمين .. وبيننا كننا
نصعد على درجات الشمال قلت له : ألم تلاحظ أننا لم نلق امرأة
في قاعات النعيم !

فقال : هؤلاء الذين رأيناهم يمثلون الطبقة الأولى من الأبرار
أما سائر الطبقات فتأتى في المراتب الثانية - وهذه لا تمثل هنا
والمرأة تحتل مكانها دائما في المراتب التالية

مضيت إلى القاعة الأولى على اليسار .. ووقفت بياها أنظر
في عجب الى ما فيها ، رأيت أناسا هدهم الهزال ، تدلت بطونهم
حتى وصلت إلى الارض ، يشبون على طعام تدلى فوق رؤسهم
فلا يصلون اليه . وكان الطعام يهبط أحيانا ولكن ما أن ينهض

الأموات اليه حتى يرتفع ثانية في مثل ملح البصر .. وكانت رائحة الطعام والوانه الكثيرة تفوح في المكان ، فتحرك الشهوة اليه . فيظل المذنبون يثبون ، ويثبون ، وهم لا يدركونه أبدا - وفيما كنت أبحث ببصرى عن الحارس - رأيت بعض من أقعدهم التعب يرقدون على الأرض صفر الوجوه ، معلقة أبصارهم بهذا الطعام الذى يبصرونه ولا يدركونه ، يتصبب العرق من جباههم ، وهم يلتوون من الجوع .. وحين وقعت عيني على الحارس فى ركن من أركان المكان سعيت اليه وسألته : من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين كانوا يطعمون على الدنيا من أموال كسبوها بالجور والظلم ، أما ترى الى بطونهم كيف كبرت وتضخمت . إن طعام هذه الأرض حرام عليهم ، لأنهم لم يعتادوا الطعام الحلال

قلت : الا يكون لهم أن يطعموا أبدا ؟

قال : ليس لهم عندنا طعام ، إنهم سيظلون جوعا الى الأبد فنظرت اليهم فى شئ من الأسف لحظة من الزمن ثم غادرت القاعة وأنا منهم الخائفة المؤلمة تلاحقنى - وما أن وصلت الى القاعة الثانية ، وأرسلت طرفى الى داخلها حتى ارتددت مسرعا الى الوراء من هول المنظر الذى وقعت عيني عليه ، رأيت وحوشا كثيرة

تزار في القاعة فيدوى زئيرها الخيف في أنحاء القاعة ،
وقد قبضت بأنيابها ومخالبها على بعض الآدميين وراحت تمزق
أجسادهم ، والدماء تقطر من أنيابها ، وصرخات المذنبين تتجاوب
في الفضاء فتتهز الاجسام ، وما أن يدع أحد الوحوش مذنباً من
المذنبين حتى ينهض يجر جسده الممزق ، ويسرع محاولاً الفرار
ولكن ما أن يخطو خطوة أو خطوتين حتى يتلقفه وحش آخر
ليعمل فيه أنيابه ومخالبه ...

لا أدري لماذا ملا منظر هؤلاء المعذبين نفسي ألماً وأسفاً ،
لقد بدا العقاب فظيلاً مرعباً ، ولقيت الحارس واقفاً إلى جانبي
فسألته : من هؤلاء ؟

قال : القتلة

قلت : وإلى متى يمضون في هذا العذاب

قال : إلى الأبد

قلت : إلى الأبد ؟ ... ولكن ماذا لو كشفت لهم الآلهة عن هذا
العذاب وهم على الدنيا قبل أن يقتربوا آثامهم
فقال الحارس : أتريد أيها الميت الفاني أن تعترض على حكمة
آلهتنا ...

فقلت وأنا أتحاشى نظراته الرهيبة : كلا .. كلا ، ولكن هل

من العدالة والرحمة أن يصبح الإنسان مسئولاً إلى هذا المدى البعيد الذى يمثله هذا العقاب الأبدى ، عن أسباب ضعفه وعوامل انحلاله وهى أسباب وعوامل تمتد جذورها إلى أكثر من ذات نفسه ، حين يستمد من تربة المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن البيئة التى نشأ فيها ، ومن الوراثة أيضاً ، معظم مقومات سلوكه ..

قال : ليس لك أيها الميت الفانى أن تتحدث عن الرحمة والعدالة إن أوزيريس يزن كل هذه الأمور بميزان دقيق ، وسترى اليوم مصداق ذلك عندما تشهد محاكمة الملك خوفو والملكة نفرتي والمثال «مرى»... وستشهد فى الجحيم ، إذا كان من نصيبك أن تكون من أهله صوراً من العقاب الجماعى ، إلى جانب العقاب الفردى تؤخذ به الأمم والجماعات ، التى أمدت أفرادهما - لسوء نظمها وفساد مبادئها واختلال مقاييس الأمور فيها - بنماذج سيئة وردية من السلوك

قلت : أحقاً يوجد شيء من هذا ؟.

قال : سيكون لك أن تراه بعينيك هاتين إذا كنت من أهل

الجحيم

وابتسم الحارس ابتسامة ساخرة

فقلت له : لن يكون لى أن أراه أبداً ، فليس لدى ما يؤهلنى

لأكون من أهل الجحيم..

فقال : وما زالت البسمة الساخرة معلقة على فمه : ومجتمعك هل كان صالحا كل الصلاح ؟

فكرت لحظة قليل أن أجيب على تسائله الغريب ، ثم شعرت بالحيرة ، وقلت : لا أدري !!

تركته وأسرعت خارجا وأنا اسمع ضحكته الساخرة تتردد ورائى وسرت إلى القاعة الثالثة في خطوات متساقطة ، ونفس حزينة أسيفة ، وحين وقفت ببابها شاهدت قوما غلاظ الأجسام يحملون أثقالا فوق ظهورهم وهم يئنون تحتها ، يروحون ويحيئون والعرق يتصبب من وجوههم كالطر المنهمر ، تسير خلفهم فرقة من الشياطين ، في أيديهم سياط من نار ، يهوون بها بين حين وحين على ظهور المتوانين منهم والمتوقفين ، وما لبثت أن تركت هذا المنظر الغريب ومضيت أبحث عن حارس القاعة ، وحين لقيته سألته :
— من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين اكتنزوا الأموال ، حين كان الناس من حولهم يعيشون في الفاقة والبؤس

قلت : وماذا يحملون ؟

قال : هذه أثقال من ذهب يروحون بها ويحيئون لا ترفع

عنهم أبداً ، تلهب الشياطين ظهورهم ووجوههم ، إن توانوا أو
توقفوا ، إنهم عبيد الذهب في الدنيا والآخرة ..
قلت . وإلى متى يعضون في هذا العذاب ؟

قال : إلى الأبد

وقفت لحظة أتأملهم يروحون ويحيئون تحت هذه الاثقال
الكبيرة وقد ارتسمت على وجوههم صور رهيبية للألم ، ثم
خرجت ورحلت أهبط الدرجات الثلاث ، وتدبرت حديث الرجل
الذي لقيته ناحية اليمن ، وتذكرت أنني لم ألق امرأة في قاعات
العذاب ، فقلت أسألك نفسي ، ترى هل أحسنت المرأة صنعا
بنفسها حين نأت عن الصفوف الاولى ، هنا وهناك ..

رأيت الأموات يمضون صوب الباب القائم في الوسط بين
قاعات الشمال وقاعات اليمين، ثم سمعت بعد لحظة صوت بوق
يدوى فأقبلت الجماعات التي كانت تطوف بالقاعات مسرعة وانضمت
إلى الجموع الكثيرة التي وقفت تموج أمام الباب، ومضت لحظات
من الترقب والانتظار حتى فتح الباب، فبدأ الأموات يتدافعون
كالموج إلى الداخل .. وبعد لحظة وجدت نفسى وسط قاعة كبيرة
مثلثة الشكل، فانتحيت ناحية واخترت مقعدا جلست عليه،
وبدأت أجول ببصرى فى أنحائها، رأيت فى أحد أطرافها عرشا
من ذهب حوله متاعد من فضة، وفى الطرف الثانى ارتفع ميزان
كبير جثم إلى جانبه وحش هائل، له رأس تساح وجسد أسد،
والدم ما ينفك يقطر من بين فكيه، تلبع عيناه بريق ملتهب خيف
— أما الطرف الثالث فكانت تخيم عليه ظلمات رهيبة تمنع النظر
أن ينفذ فيه. ورأيت إلى جانب العرش حاجز آمن اجرأيت أقيمت
إلى جانبه قاعدة من قواعد التماثيل الصغيرة.

وفيمما كنت أجول بطرفى هنا وهناك ، أقبلت فتاة صغيرة السن ترتدى ثياباً قصيرة جميلة وجلست إلى جانبي — وكأنما تجمع كل ما فى هذه القاعة ، فى زهرة اللوتس الزرقاء المعلقة على صدرها وفى عينيها الساحرتين وشعرها الأسود الفاحم ، لأنى تركت القاعة وما فيها ، ورحت أتأمل هذه الأشياء الرائعة وحدها ، وما زلت أتأملها حتى أحسست برغبة قوية فى سماع صوتها ، كى تكمل الصورة كلها فى عيني وحواسي ، وبدأ لى أن الفتاة قرأت شيئاً مما جال بخاطري .. إذ رأيتها تقبل على بنظراتها ، فقلت : « سيدتى ، إننى غريب عن هذه الأرض .. ولا أعرف شيئاً عن تقاليد أهلها وعاداتهم ... لأن حراس المقابر لم يحدثونى عن شىء من هذا .. »

قالت : ماذا تريد ... ؟

قلت متردداً : هل يؤذن لى بالحديث .. معك .. ؟

فقالت وهى تبتسم : من غير شك تستطيع أن تفعل ..

قلت : هذا كل ما أود معرفته الآن .. شكرآ ..

ثم عدت بعد لحظة فسألتها : ما سبب مقام هذا الوحش فى هذا المكان الجميل !

قالت : ذلك هو الوحش « أماتيت » إن مقامه دائماً إلى جانب الميزان ، ليلتهم قلوب المذنبين .

قلت : فلا شأن له إذن بمن فى القاعة ..

قالت : كلا ، لا شأن له إلا بقلوب المذنبين ...

قلت : شكر أ ... وله كفى سمعت أننا منذ شهد الآن محاكمة الملك
خوفو والملسكة نقرتيتى وأحد عطاء الفنانين . هؤلاء الذين ملأت
أسماءهم العالمين — فهل يعنى ذلك أن هذا الوحش يربض هنا ،
ليلتهم قلوبهم ... !

قالت : من يدري .. إن أوزيريس وحده ، هو الذى يعلم من
المذنب ، ومن البريء ...

قلت : أريد أن أتعرف بعض العطاء الذين تضمهم هذه
القاعة ، إننى أرى فيها كثيرا من أرباب التيجان ..

فتلفت الفتاة حوفا وعادت تتحدث إلى ، قالت « تجلس
خلفك مباشرة الملسكة حتشبسوت ، وزوجها تحتمس

قلت فى همس — إننى أعرفه .. أعرفه جيدا .. إنه ذلك القائد
العظيم الذى لم يستطع أن يؤسس أول إمبراطورية فى التاريخ إلا
بعد أن ماتت زوجته ... ! لقد كانت أشد قسوة عليه من كل ما
على العالم من جيوش وأساطيل .. إننى أعرفها جيدا ..

وعادت الفتاة وقالت — « .. واللذان إلى جوارك هما ، أحمس

وأخناتون ، وهناك على مقربة من الحاجز الجرانيتي ، ترى إثنين
من بناء الأهرام ، خفرع ومنقرع ..

لقد شعرت وأنا أصغى إلى صوت الفتاة العذب الرقيق ،
بقلبي يضرب في عنف ، كيف أجلس هكذا بين ملوك العالم القديم ،
إن الواجب يقتضيني السجود أمامهم ، وعندما حدثت الفتاة
عن حرجي قالت : الناس هنا سواسية ، إن الذي يجلس إلى جانب
أخناتون هو أحد حراس المقابر - وحين تأملت هيئة هذا الحارس
وتدبرت حالي ، عاودتني الطمأنينة ...

وساد الصمت بيننا لحظة ، ثم عدت فساءلتها « ماذا كنت تعملين
على الحياة ... ؟ »

قالت : لقد كنت وصيفة الملكة « نفر تيتي » ثم سكنت لحظة
وقالت ، فما كان عملي أنت . ؟

قلت : صحفى ...

فقالت : ماذا .. !

وتذكرت أن هذه الفتاة لم تدرك عهد الصحف ، ولم أدر كيف
أفسر لها هذا العمل الغريب فقلت — إنه عمل جديد ياسيديتي نشأ
في العصور المتأخرة ..

قالت : وأى الطبقات كانت تزاوله وتموارثه ..

لقد ازدادت الأمور تعقيداً ، فهذه الفتاة التي تحيا في الأرض الثانية لا تريد أن تنسى نظام الطبقات ، وليس في وسعي أن أحدثها عن الديمقراطية ومعناها ، وأنقذني من هذه الحيرة إنفراج كوة من النور في الطرف الذي يخيم الظلام عليه ، ما لبثت أن برزت عليه بعد ذلك أربعة أشباح مضت تسعى حتى مرت بالقرب من مقاعدنا — فهمست الفتاة في أذني : هذا هو الإله أنويس مدير دفن الموتى ، وهذا هو الملك خوفو ، وهذه ملكتي المحبوبة وهذا هو الفنان مري ، تأمل عينيه ، إنها تلمع بومضات العبقريّة ، لقد كان عظيماً ، كان عظيماً ..

قلت هل تعرفينه ؟

قالت : أجل ... أجل . لقد صنع تمثال ملكتي ... لقد كانت أكثر من مجرد معرفة ، ليس في وسع المرء أن يكذب هنا قلت : هل كان حياً ... !

فابتسمت الفتاة وصبغت حمرة الخجل وجنتيها الورديتين . وما زال الإله مدير دفن الموتى يسير بهؤلاء القوم حتى وصل إلى الحاجز الجرانيتي القائم إلى جانب الميزان ، فدفعهم جميعاً وراءه - ووقف هو أمامه بعصاه الطويلة ، ورأسه الذي يشبه ابن آوى - وذهب الفتى الفنان فوقف في طرف المكان يتأمل الجالسين

في القاعة ، ويلقى ببصره بين حين وحين على الملكة الجميلة - وحين
تلفت إلى الفتاة الجالسة إلى جوارى - وجدت نظراتها مثبتة عليه
فقلت: هل التقت نظراتكما ؟... قالت : حسبي ما يحفظه لي في قلبه ..
ومضى الملك يذرع المكان جيئة وذهابا وقد عقد يديه وراء ظهره
وأتجه ببصره إلى أعلا كأنما لا يعنيه شيء مما يقع في القاعة ... أما
الملكة فقد جلست على مقعد في طرف المكان ، في وقار كأحدى
الربات ... كانت بيضاء مشرقة الوجه ، تلبس تاجها الكبير ، وترتدي
ثوبا طويلا من لون البنفسج - وبدأ كأن سحر الدنيا كله قد اجتمع
في عينيها ...

ونفخ في البوق ثلاثة مرات ، فساد صمت رهيب وأتجهت
أبصار الناس إلى الطرف الذي أقيم فيه العرش ، حيث انفرج منه باب في
أقصى الزاوية خرج منه خمسة اشخاص يحمل احدهم شعلة من نور ،
ونظرت إلى الفتاة متسائلا ... ؟

فقالت : - الأول الذي يلبس التاج ذا الريشتين هو أوزريس
إله العدالة ورئيس أهل الغرب ... والذي يليه « حورس » ...
إبنه ، إله الخير ... والثالث « تحوت » القمر إله الحب والأمين
على أسرار المحبين ، والذي يحمل الشعلة « مات » إله الحقيقة ...
والأخير بتاح ، حارس الميزان

ومضى أوزريس حتى جلس على العرش، وتابع الإله مات سيره حتى وصل إلى القاعدة القائمة أمام العرش فوضع الشعلة عليها ثم عاد فجس هو والالهة الآخرون على يمين أوزريس ويساره ولم يلبث مات ان نادى - « فتحت الجلسة .. » فاستوى أوزريس فى جلسته ومضى يتأمل الواقفين وراء الحاجز ، ثم نقل بصره إلى الجالسين فى القاعة وقال ،

« ... أيها المبعوثون ، يامن أحياكم النور .. إنكم هنا فى قاعة العدالة تستضيئون بنور الشعلة المقدسة « شعلة الحقيقة الخالدة » هذه الشعلة التى لا يستطيع إنسان أن ينطق بشئ غير الصدق أمامها إننا سنحاسب الملك خوفو والملكة نفر تيتى ، والمثال مرى طبقا لقوانين عدالتنا ... وسوف تظهر الآن لبعضكم حقائق جديدة كانت خافية عليهم ، ستبدو هذه الحقائق غريبة عليهم ، رجائى أن تلقوها هادئين فليس لقوم يحيون فى هذا العالم ، عالم الحقائق المطلقة أن يتطلعوا لشيء غير الحقيقة ، الطريق المستقيم إلى الحق والعدالة ... ويجب أن نفرق بين عالمين ، عالم كان فى وسع المرء منكم فيه ، أن يظهر خلاف ما يبطن ، أو أن يظهر أقل مما يبطن ، . وعالم ليس فى وسع كائن فيه ، أن يظهر غير ما يبطن أو أقل منه .. »
ثم سكت وظل ينظر إلى الأوراق الموضوعه أمامه لحظة

من الزمن ، ومال على أذن حورس ، فأسر إليه بضع كلمات ، ثم توجه إلى الواقفين وراء الحاجز ، وقال « فلتتقدم الملكة .. »
خرجت الملكة ومضت حتى وقفت أمام الآلهة وانحنى قليلا
ثم استوت أمام الشعلة ... فسألها أوزيريس « ما أسمك .. ؟ »
قالت الملكة : نفرتيتى ..

— وأين ولدت ؟

— فى طيبة ...

— وكـم كان سنك عندما أقبلت إلى هذا العالم .. ؟

— لم أكن قد تجاوزت الأربعين ..

— وما كان عملك على الحياة ... ؟

— كنت ملكة وزوجة ...

— ألم تشغلى أيامك على الدنيا بعمل آخر .. ؟

— ككل امرأة يامرلاى ... قد أحبيت ، وملاً هذا الحب جانبا

كثيرا من حياتى ..

وفى هذه اللحظة عاد ، أوزيريس يطالع فى سجلاته ، فسمعت

الفتاة تحدث نفسها ... « أجل هذا حق ... تلك رسالة المرأة

الأولى ... » وسمعت فى نفس الوقت الملك أخناتون الجالس إلى

جانبي يحدث الملك أحمس فيقول « إنني لم أشك يوماً في حبها ، لقد آمنت اليوم أن هذا الحب ، هو الذي ألهمني سر آتون الإله الواحد ، ولم يكن غير هذا الحب الخالد ، شيئاً يمكن أن يهدي القلب إلى هذا السر العظيم ... ثم قال في فورة من الحماسة ... »
« ألسنت تؤمن معي ، أن أعظم ما عاش على الدنيا من أفكار ومبادئ وأعمال ... هو من وحي المرأة وإلهامها » .

فقال أحمس مبتسماً : في الحق إنني لا أؤمن بشيء من هذا ، فقد كدت أخسر حربي مع الهكسوس بسبب امرأة جميلة ، ولكن هل كنت سعيداً بهذا الحب ؟ .

قال أخناتون : كنت سعيداً كل السعادة .

وتركت أخناتون يحدث رفيقه عن سعادة وعدت اتأمل الآله من جديد ، رأيت أوزيريس ما زال يقلب في أوراقه ، ورأيت تحوت يتابع حديث الملكين بنظراته ، وقد افتر ثغره عن بسمة ساخرة ، وحين فرغا من حديثهما مال إلى أذن أوزيريس وأسر إليه بضع كلمات ، فتوجه إله العدالة إلى الملكين وقال « أخناتون .. »

فقال الملك الفيلسوف الذي ألهمه حب امرأة - سر « آتون »
الإله الواحد - لبيك يامولاي ..

قال أوزيريس : غادر القاعة ...

قال الملك : لماذا ... !

قال أوزيريس : ليس لك أن تلتمس لأوامر الآلهة أسبابا .. !
فقال إخناتون : أعتقد أن ما تقوله الآن ، كان حقا متمشيا
مع منطق الأشياء ، وطبيعة الحياة على الأرض الشرقية ، أما هنا
حيث نحيا معا ، وجها لوجه ، لا يفصلنا عنكم حجاب ، فأنتى أرى ...
وقاطع أوزيريس الملك الفيلسوف فى حدة وقال : إصدع بالأمر
فقال الملك : ولكن كيف أترك هذه الزوجة وحيدة — فى
محنة حسابها ...

قال أوزيريس إصدع بالأمر قبل أن تتلفك الشياطين ...
فتحرك الملك فى ببطء ، بعد أن ودع زوجته بنظرات المحبة
والعطف ، ثم مضى وسمعه يتم فى صوت خفيض ... « لقد
أحدث تعدد الآلهة فى الحياة الأولى ، شيئا قليلا من الفوضى ،
لأنه كانت إلى جانب إرادتهم إرادتنا نحن البشر ، أما هنا حيث
لا إرادة لنا أمام إرادتهم ، فإنهم سيفسدون الأمر إفسادا لا يرجى
معه إصلاح .. ! »

ثم اختفى بعد ذلك عن أبصارنا ... والبسمة الساخرة ما تزال
تتأرجح على شفتى « تحوت » ..

وعاد أوزيريس فوجه حديثه إلى نفر تيتي وقال « أرجو أن تنظري إلى الشعلة المقدسة » فرفعت الملكة بصرها إليها، فسألها — « من الذى أحبيته هذا الحب .. ؟ »

فأجابت الملكة : إنه « مرى » أيها الإله ...

وأحسست بيد الفتاة وهى تمسك ذراعى ثم سألتى : ماذا قالت ... ؟

قلت : مرى .. مرى .. كانت ملكتك المحبوبة . تحب فتاك ..

قالت ، وأنا أحس باهتزازها إلى جانبي : ولكن ..

قلت : هددى من روعك يافتاقى فلعله لم يكن يحبها لأنه من

العسير أن يسلم الفنان قلبه إلى امرأتين ...

وفى ذات اللحظة التى كنا نتحدث فيها زاد لغط الحاضرين

وعلا ضجيجهم ، وبدأ كأن اعتراف الملكة قد ذهب بزمام النظام

فصاح أوزيريس فى صوت قوى : « لقد طلبت منكم أن تملقوا

الحقائق هادئين ، تذكروا دائما ، أنه لايجدر بإنسان أن يرفع صوته فى

حاضرة الآلهة .. »

فساد القاعة صمت رهيب ، مكنتى أن أستمع إلى أنفاس هذه

الوصيفة الجميلة وهى تتردد بسرعة فى صدرها ... وعاد أوزيريس

يسأل الملكة . « وأين لقيت هذا الفتى ... ؟ »

— فى القصر عندما أحضره الملك ليصنع لى تمثالا .

— ومتى شعرت أنك أحبيته ...

— عندما أتم التمثال .. !

— ألم تعلمى أنك كنت تقدمين على وزر ستحاسين عليه هنا .

— ... كنت أعلم ذلك فى أوقات .. وكان يسدل بينى وبينه

حجاب فى أوقات ...

— إن الشئ لا يكون له إلا معنى واحد فى العقل ..

— أجل يا مولاي .. إنك لا تنطق إلا بالحق ، ولكن

العقل ليس كل ما تفسر به الأشياء والمعانى .. هناك قلوبنا أيضاً

أيها الإله .

— فى أى الأوقات كنت تنظرين إلى هذا الحب بعقلك ،

وفى أيها كنت تنظرين إليه بقلبك ..

— إذا لقيته لا أجد إلا قلبى .. وإذا خلى سبيلى وجدت

القلب والعقل يتنازعان ...

— وكيف أحبيته

مولاي ... هل من الضرورى أن أسرد هذا ... ؟

— أجل .. إن من حق العدالة أن تحيط بكل شئ ...

فقالَت الملكة متوسلة : مولاي أعفني من ذكر هذا ،
أتوسل إليك

فقال أوزريس : ليس في تقاليد عدالتنا ما يسمح لي بأن أجيبك
إلى توسلك ، إرفعي وجهك في الشعلة حتى يصل نورها إلى قلبك
وحتى لا ينطق لسانك بشيء غير الصدق ...

وامتثلت الملكة أمر الإله ... فرفعت وجهها إلى الشعلة ...
ثم بدأت تتكلم كأنها تقرأ من لوح محفوظ قالت « ... أقبل
« مرى » ذات يوم وكانت الشمس قد ودعت عالمنا ، وما زال
الشفق الأحمر يستطع كاللهب عند نهاية الأفق ، كنت قد عدت
لتوى من معبد « آتون » بعد أن استمعت إلى صلوات الكهنة ،
وعزف الموسيقى ، — لقد كانت نفسى مفعمة بأحاسيس كثيرة
مبهمة ، أغلب الظن أنها لم تكن تتصل بشيء مما على هذه الأرض ...
وحين بصرني سجد وقال « مولاتي لقد اكتمل التمثال .. » قلت
حسناً يا مري ها أنا ذا مقبلة معك لأراه ... ثم مضيت معه إلى
المكان الذى صنعه فيه ، في الحجرة المقامة بحديقة القصر ، كان
التمثال مغطى بستر من الكتان الأبيض فقلت « إرفع الستر يا مري ...
» فقال « مولاتي إنما يمثل هذا التمثال جمالك فكيف تدعين عبداً
مثلى يكشف عن جمال ملكته ... » فقلت وأنا أبتسم له ... — »

يسرنى أن تفعل ذلك يا مرى .. « فرأيتة وقد ملأ البشر قلبه ..
فقاطعها أوزريس بقوله « قلبه ... ! كيف عرفت ذلك وليست
لك قدرة الآلهة التي تطلع على القلوب ... »

قالت : عرفته من عينيه ... !

فقال إله العدالة : حسنا ، وماذا بعد ذلك ...

وعادت الملكة وتابعت حديثها فقالت « لقد تقدم إلى التمثال
ورفع الستر عنه ، ووقف ينقل بصره منه إلى ، ومنى إليه ، يلع
في عينيه بريق غريب ، ثم قال « هاهو تمالك يا مولاتي .. »
قلت : لقد أحسنت يا مرى ، إن روحى ستجد فيه مقاما
ومستقراً طيبا ، عندما ترد بعد الموت إلى الحياة .. فقال : لا ..
لا .. إننى لم أبدعه لشيء من ذلك ابداً ، وما كان لفكرة كهذه
أن تهدينى إلى صنعه .. . فقلت وأنا أعجب لحديثه ، إن التماثيل
لا تصنع إلا لتجد الروح فيها ملاذاً تلوذ به إذا أضلتها الارواح
الشريرة عن جسدها .. قال : كلا .. كلا .. لم أصنعه لشيء من هذا
أبداً .. فسألته : فلأى شيء صنعته إذا .. فأطرق إلى الأرض لحظة
في صمت فسألته مرة أخرى : حدثنى يا مرى لأى شيء صنعته ؟

قال وهو يتعثر في حديثه كالطفل أول ما يتحدث بالكلمات إلى الناس ، صنعته لشيء أعظم وأروع من الخلود .. ثم قال بصوت كالترنيم وهو ينظر إلى بعينين حالمتين تترقرق الدموع فيها .. صنعته للحب يا مولاي ، ثم رأيته يهتز فأمسكت بيده وقلت : تقول أنك ابتدعته للحب . فقال : أجل واصلت الليل النهار ، وأنا أعمل فيه ، وصورتك تشرق على في كل لحظة وخطرة بمعنى جديد ، ولو أننى قضيت حياتي كلها أعمل فيه لما مللت العمل ، ولوجدت كل لحظة وكل ساعة شيئا جديدا أستطيع أن أضيفه اليه ، لأن المعاني التي تتدفق على قلبي وعقلي من جمالك وحبك ، أبدية لا تنتهى ، خالدة لا تنفى - إنها ستظل تتدفق عليهما بعد الموت أيضا كهذه الأبدية التي يحيا فيها الأموات ، لقد أحبيتك يا مولاي ، حبا ليس وراءه أمل ، حبا يقف أمام الموت وجها لوجه ، أحبيتك يا مولاي لأنه ليس لقلب - وإن قد من الصخر - أن يظل مغلقا عن إستقبال جمالك والتأثر به ، أطلعنى فرعون على قصتي ، سوف يلقى جثتى الى السباع ولكن لن يمنع قلبي بعد الموت من أن يستقبل جمالك ويتأثر به ... ثم سكنت لحظة ورفع عينيه إلى التمثال وقال فى ضراعة :

كنت أود أن أفر بهذا التمثال لأتخذه إلهاً ، لأعبده في مكان بعيد .. قلت : تعبد هذا الحجر وقد قضينا على تعدد الآلهة ليعبد الناس آتون الإله الواحد فقال : لقد حاربتم تعدد الآلهة وشرعتم الوحدة قسراً وجبراً ، ولكني سأعلم الوحدة طوعاً — في عبادته وظلت عيناه على التمثال يخاطبه في ضراعة العابد المتبتل ويقول : « إنه ليس حجراً ، لم يأت الى قلبي على معنى من معاني الأحجار إنه القيثارة التي غنى عليها قلبي لحن الحب الخالد ، وهذه الألوان هي إشراق الحياة ، ما بدت لعيني مشرقة . قلت : غريب .. كيف يفعل الحب هذا .. كيف يضيق على الأشياء هذه المعاني ... قال : إنه سر من أسرار الإله . فقلت : وماذا تفعل يا مری إذا بدا ألا أمل لك في حيي .. نظر الى فرايت دمعة كبيرة تنحدر من عينيه وقال : وداعا يا مولاتي .. وداعا ... لقد أحبيتك هذا الحب كله على غير أمل .. ثم مضى ...

... ونشر التمثال للناس .. فكان فتحاً رائعاً في عالم الفن والنحت . تلقاه الوادي كله بهزة عظيمة من الدهشة والاعجاب ، ورأيت

زوجات الأمراء والقواد لا يرفعن أبصارهن عنه حين يقبلن
لزيارتى ويتحدثن عن هذا المقر الأمين الذى ستحيا وتحلفيه روحى،
ثم يتساءلن عن الفنان الذى ابتدعه

وفى ذات يوم جلست وحدى أمامه ، أرنو اليه وأتأمل قسماته
الجميلة ، أحسست أن جمالى سيفنى مع الأيام ، وأن جمال هذا التمثال
خالد ، سألت نفسى ، أين هذا الفنى الذى ابتدع وحده لى كل هذا
الخلود ، وماذا جزيتة عليه . ولم ألبث أن بعثت وصيفتى الآمنة
فى أثره ، لقد أحبيت أن أراه لأستمع إلى صوته وهو يتحدث
إلى عن الحب والخلود ...

وأقبل « مرى » قبل الغروب ، وجلس أمامى فى شرفة القصر
التي تطل على الوادى الأخضر الجميل ، وحدثته فقلت « مرى إنك
خلدت جمالى وإسمى بهذا التمثال ، فلن يستطيع الفناء أن ينال منهما
شيئا ، إننى أحس يامرى أننى تافهة أمام روعة هذا الفن ، إننى أريد
أن أكون وفية لعهدى ومليكى ، وأريد فى نفس الوقت ألا أقضى
على الحب الذى ابتدعت له هذا التمثال .. فماذا أفعل ، ماذا أفعل
يامرى ؟ . إننى لا أحب أن يخلو القلب الذى ابتدع كل هذا
الخلود ، من مكان لى ... » فقال : « إنه كله لك يامولاتى ... » ثم

اقترب وسجد أمامي ... فقلت « وأريد أن أكون وفية لعهدى ...
ومليكي .. » لقد أحسست أنفاسه تهب على من كل جانب ، لقد
نسيت كل شيء ، ومرت فترة غامضة في حياتي كلها ، أغلق على العقل
سبيل تفهمها على معناها للصحيح — لا أدري ماذا حدث ، ولكن
عندما ثبت إلى رشدى شعرت بنسيم جديد يهب على حياتي ، له
سحر غريب .. قلت « ماذا فعلت يا مري .. » فتناول يدي وقبلها ،
ومضى يردد في صوت كنفحات الآلهة ...

فصاح « مات » إله الحقيقة مخنقا « أيتها المرأة ، إياك أن
تتعرضي للآلهة بشيء من هذا مرة أخرى .. » ولكن الملكة تابعت
حديثها فقالت « قال ... لقد أخرجت من نفسي بعض رוחي
فأودعتها شفتيك ، لتتصل روحانا — فأغدو جزء منك وتصبحين
جزء مني ، ولعل ذلك قد كتب لنا منذ الأزل . » فقلت : لعله
قد كتب لنا يا مري ... »

ثم صمتت الملكة فجأة ... وبدأ صدرها يعلو ويهبط في سرعة ،
وعلت وجهها صفرة رهيبية ، لقد بدأ الجهد الذي أخذت به نفسها
للإقرار بهذه الحقائق شاقا مضيا ، ومال « تحوت » الإله الأمين
على أسرار المحبين على أوزيريس وألقى في أذنه بعض الحديث ،

فقال أوزيريس « كفى .. كفى .. » ثم توجه إلى بتاح وقال « خذها
وزن قلبها في ميزان العدالة .. » فنهض « بتاح » ومضى بالملكة إلى
الركن الذى رفع فيه الميزان — وربض فيه الوحش « أماتيت »
وحين تلفت حولى ، لم أر الوصيصة الأمانة ... ! لقد غادرت
المكان ، ولم أشعر بها حين نهضت ، لأن قصة الملكة قد استحوذت
على حواسي كلها ...

وعندما اختفت الملكة عن الأبصار — طوى أوزيريس بعض أوراقه ونشر أوراقا أخرى غيرها ، ثم أشار إلى الفتي « مرى » وقال « تقدم » وحين هم الفتي بالمضى أمسكه الملك خوفاً من ذراعه وقال موجها حديثه إلى أوزيريس « كيف يقدم هذا الفتي على باني الهرم ... ! » فنظر إليه « مرى » وقال فى هدوء عجيب « إن تمثال أعظم شأنًا من هرمك .. لقد كسبت بتمثالى حب الملكة فماذا أكسبت أنت بهرمك ... ؟ » فصاح خوفاً وهو يهزه فى عنف .. « ماذا تقول أيها التعس ... أين سوطى لقد نسي هؤلاء القوم سوط خوفاً .. »

وعاد أوزيريس وقال « تقدم أيها الفتي .. » فنظر إليه الملك ولما يزل ممسكاً بذراعه ، فقال إله العدالة « لا يجوز لأنسان أن يعترض على حكمة الآلهة .. ! » عندئذ خلى خوفاً سبيل « مرى » وجلس صامتا وهو محنق مغیظ ، ومضى المثل حتى وقف أمام الشعلة ، فسأله أوزيريس :

— ما أسمك ... ؟

- مری
- وأین ولدت ؟
- فی طیبہ ..
- وما سنک عندما ودعت الأرض الشرقية .. ؟
- لم أکن قد جاوزت الثلاثین ..
- وما کان عملک ؟
- الحب ... یامولای
- ماذا .. ! ألم تکن نحانا ؟
- ذلک جاء أخیراً یامولای ، فقل أن یتعلم الإنسان شیئاً
- أو یحسنه قبل أن یجب ...
- إتجه ببصرک إلى الشعلة ، وحدثنا کیف کسبت قلب الملكة ؟
- ذلک مطلب عسیر یامولای ... إن ما یتصل بالقلوب لا
- یمکن تفسیره للناس ..
- هل نسیت أنك فی حضرة الآلهة ، ولست فی حضرة الناس !
- آه .. عفواً
- حدثنا إذن کیف کسبت قلبها .. ؟
- الأمر بسیط یامولای ، لقد کنت صادقاً فی حبی ، ومؤمناً
- به ولا أعتقد أن إنساناً یعجز عن أمر صدق فیہ وآمن به .. لقد

رأيت يامولاي لحن حبها يكمل أنشودة حياتي وفني ، ولم يكن
لهذه الحياة وهذا الفن أن يكتملا بغير هذا الحب ، ثم شاء القدر أن
يهمي لي فرصة أعبر بها عن إعجابي وحيي ، فابتدعت هذا التمثال
الذي لا أشك في أنك رأيته ، لأن الآلهة لا تغمض عينيها عن
جمال في هذا الوجود ..

— أشهد أنني رأيت تماثلك وأعجبت به .. ولكنني أتساءل

كيف استطعت أن تعبر عن جمال المملكة ذلك التعبير .. !

— ذلك يامولاي عمل الفنان ، الذي تنحصر رسالته في

البحث عن الجمال والإحساس به إحساساً قوياً دقيقاً ، يدفعه إلى

التعبير والأفصاح عنه ، كما لا يستطيع أحد من الناس ..

— إن الآلهة لا تعترض على ذلك ، ولكن ألم يكن لك أن

تؤدى رسالتك من غير أن تزل قدمك .

— لا يمكن يامولاي ، لا يمكن يامولاي أن يؤدى الفنان

رسالته إذا لم يحب ... إن الحب هو الذي يهdy الفنان إلى الجمال .

لأنه وحده الذي يعلم الإنسان الإحساس الدقيق - أداة الفنان

الوحيدة .

— متى شعرت أنك أحبتها .. ؟

— وأنا أصنع التمثال

— ألم تسكن تؤمن بأنك ستبعث في يوم من الأيام
تحتاسب على عملك هذا ...

— كنت أو من يامولاي ، فليس لإنسان إتصلت روحه
بأسرار الحب والفن ، ألا يؤمن بالبعث ، ولكنك يامولاي لا
تتكلف فنانا ظل شهوراً يفكر في جمال هذه الملكة ودقائقه ، ثم
ينقله إلى الحجر ، ألا يحب هذا الجمال ، إنه إن لم يفعل كفر بالآلهة
التي ابتدعتها . إن نظرة واحدة إلى الجمال الذي يطل من وجهها
وعينها لتدل على الآلهة أكثر مما تدل عليها الآلاف المؤلفة من
الكهنة ...

— هل لديك ماتود أن تدفع به عن نفسك هذا الوزر
— لا يمكن يامولاي أن يكون هذا الحب وزرا ، حتى ألتس
له الأعذار إن حب الفنان ، عبادة وتقديس للجمال .. ولا يمكن
يامولاي أن تجتمع العبادة والتقديس مع الخطيئة والأثم ، في
محراب واحد - إن الخطيئة تطأ الجمال بأقدامها ، والشهوة والأثم
يتمهنا به وبعيد كل هذا عن عمل الفنان وروحه ، إن هذا الحب ،
الذي أطلع قلبي على أسرار لم تكن لتكشف له ، لا يمكن أن يكون
وزرا - لقد كان نفحة مباركة من نفحات الآلهة ...

فقال أوزيريس مقاطعاً: الآلهة مرة أخرى... ما ذنب الآلهة في هذا الأمر...؟

فقال مري: مولاي، لقد اعتدنا نحن البشر، أن نرد الأشياء التي لانعرف أسرارها، والتي تغلق على عقولنا والتي نحس مع ذلك آثارها قوية فيما يحيط بنا من ظواهر الحياة، إعتدنا دائماً أن نصلها بالآلهة... وذلك شأن الحب بين هذه الأشياء... وأريد أن أضيف إلى ما قلته يامولاي، أن التمثال الذي صنعته وهو رمز حيننا، يمثل وجه الملكة... وفي وجه الإنسان - كما لا بد أن تعرف تطل روحه الطاهرة، إنني لم أعرض للجسد حيث تختفي الشياطين - قال أوزيريس - « يكفي هذا... إن ميزان العدالة سيفصل في هذا الأمر » وفي تلك اللحظة تقدم حارسان ومضيا بالفتى إلى حيث ذهبت الملكة وبتاح منذ قليل...

طوى أوزيريس بعض أوراقه، ونشر أوراقاً غيرها وتوجه إلى الملك خوفاً - وقال - « الآن جاء دورك، تقدم... » فخرج خوفاً من وراء الحاجز ومضى حيث وقف أمام الآلهة، فسأله أوزيريس « ما اسمك...؟ »

أجاب الملك: ألا يعرف إسمي هنا، وقد ملأ الأرضين..!

فقال أوزيريس - نريد أن تعترف ، ويجب أن تعلم بأنه ليس
من حق إنسان أن يعترض على إجراءات العدالة الإلهية ...
قال الملك - إسبحى خوفو .

— وأين ولدت ... ؟

— فى السماء ...

— فى السماء ... ! من زعم لك هذا ؟ !

— إنه لم يكن زعماً ... لقد كان حقيقة ، آمن بها الناس جميعاً
وليس من حقى إلا أو من بشىء آمن به الشعب كله .

— ومتى وصلت هذه الحقيقة إلى عقلك .. وعلى أى لسان .. ؟

— كان ذلك عندما جلست على عرش أجدادى الآلهة ...
وكانت الأصوات التى نطقت به أول مرة أمامى أصوات الكهنة ،
إن الكهنة لا يكذبون .

ومضى الآلهة يتشاورون لحظة فيما بينهم ، ثم عاد أوزيريس
فسأل الملك :

— وكم كان عمرك عندما ودعت الحياة ...

— إنك تحاسبنى كما لو كنت بشراً ... ألم يدلوك على مبلغ
قرابتى من الآلهة ... وعلى أننى كنت فى حياة دائمة .. على الأرض
الشرقية ، وعلى هذه الأرض ...

— وما كان عمرك فى الحياة ... ؟

— لقد كانت لى رسالة على الأرض الشرقية ، ولم يكن لى عمل
وقد انحصرت هذه الرسالة فى توجيه أبصار البشر إلى السماء ، وإلى
ما ينتظرهم من خلود بعد الموت ...

— وماذا فعلت لىكى تحقق رسالتك ... ؟ !

— أقمت هذا الهرم ليشير لهم إلى المكان ، الذى يجب أن تتجه
إليه الأبصار ... وصورت لهم فكرة الخلود على نحو لم يسبقنى
إليه إله من الالهة ... !

— هل تعلم لماذا جىء بك إلى محكمتنا ... ؟

— كلا وأحب أن أعرف لماذا جىء بى إلى هذا المكان ...

— لأنك أقمت هذا الهرم ...

— فتلك جريمة ... !

— أجل ...

— وكيف ترونها كذلك ... ؟

— لأنك أقمته بسيطاى القسوة والظلم ، ولأنك علست أشباهك من
البشر بعملك هذا ، إراقة الدماء البشرية وتسخير الناس من أجل
شهوات نفوسهم ..

— آه ، إنك لا تحسن استعمال الألفاظ أيها الإله ، إنها ليست

شهوات .

- فأى حافز دفعك إلى بناء هذا الهرم وإراقة ما أرقته من دماء
في سبيله .

- لقد حدثتك عن ذلك فقلت إننى أقتته علامة ، تشير للناس
إلى السماء ، وأقتته صرحا للخلود... ثم لا تنسى أنه كان من الواجب
أن أترك ورائى على الأرض الشرقية ، ما يدل على عظمى ومجدى ..
- إنها كلها شهوات ، لأن الظلم قد دخل فى بنيانها ..

فتلقت الملك العظيم حوله وقال : أى عالم غريب هذا ... ؟ !
فصاح أوزيريس فى غضب : صه ، لا تعترض على عالم الآلهة ،
ألا تعلم أن عالمنا السفلى كان يئن للقسوة التى تصيب بناء الهرم —
ألم تعلم أن أصوات المحتضرين والشاكين كانت تصل إلى آذان
الآلهة كقصف الرعد ، ألم تسمع هذه الأصوات المتأللة الشاكية ،
ألم تصل الى أذنك ..

قال : كلا -- لم تصل ، لقد كنت مستغرقا فى أداء رسالتى
ولم يكن فى وسع أى نداء أو أى صوت أن يصل الى سمعى ،
وأنا مستغرق فيها ..

قال أوزيريس : لقد كنت مخطئا فيما فكرت وقدرت ، وما كان
لبشر مثلك ، أن يتطلع بعقله الى إكتناه أسرار الآلهة ، والان
ماذا تقول فى جرمك هذا ...

- جرم .. هل يعد جرماً العمل الوحيد الذى قضيت حياتي كلها فيه ، فأصبح مجدى ونفارى ، ماذا عليك أوزيريس ، لو بعثت من ينظر هذا الأثر الخالد . سيرى كيف يزهو المصريون به ، جيلاً بعد جيل ، وسيرى كيف يفتن به العالم الشرقى ، فيحج إليه الناس من كل جهات الأرض — إن القسوة التى أرتكبتها فى عمله لم تذهب فى عمل باطل ، لقد علمت بما نقلته الى ملائكة القبور ، أن هرمى أصبح رمزاً ثانياً لمصر ، فإذا تحدث الناس عنها ، قيل بلاد الأهرام ، فأى مجد يسمو على هذا المجد ..

- إنك تتحدث عن المجد على الأرض الشرقية ... إن مقاييس المجد هناك يختلف عنها هنا، هنا حيث يقاس عملك بمقياس الحق والعدالة يبدو عملك شيئاً تافهاً لا قيمة له ...
- لا قيمة له ..! أى أوزيريس - لا يجب أن يسفه هكذا العمل العظيم ... كيف يحقر هكذا هذا المجد ..!

- لن يستطيع هذا المجد عندما يوضع قلبك فى الميزان أن يرفع عنك وزر نقطة دم واحدة ، أزيقت فى بناء هذا الهرم النافقة .
- هذا الهرم النافق ! كيف تتحدث عنه هكذا ، هذه العظمة التى تقصر دونها جهود الالهة والناس ...

- لقد إبتهينا من تقدير هذا العمل ، ونريد أن نسألك عن ذنبك الآخر ، لقد كان هرمك العمل الأول في التاريخ الذى سخرت فيه البشرية كمجموع ، لأشباع شهوة فرد واحد من أفرادها ، ومنذ ذلك اليوم ، مازالت الإنسانية تلقى صنوف الآلام من شهوات من يقتدون بك ...

- لقد كنت أنشد أشياء عظيمة القيمة ، كنت أنشد المجد والخلود ..

- إنهم جميعاً يقولون ذلك ، لقد فتنتم العالم بأمثال هذه الكلمات التى لاتعنى شيئاً ، وتذرعتم بها لأراقة دماء البشر فى كل العصور ..
- لم يكن ذلك جرمنا على كل حال ، لقد ولدنا من نسل الآلهة ، ولم يكن فى وسع قلوبنا أن تستجيب لغير المعانى العظيمة ، كانت معانى الأشياء تصغر أمامنا على الأرض وكان من الضرورى أن ننفذ بقلوبنا إلى السماء ، نلتمس من صفات الآلهة ، معانى تنسجم مع نبض هذه القلوب ، وتجاوب دقاتها .

- لقد التمسنا قوة الآلهة وجبروتهم ونسيت حقهم وعدلهم ورحمتهم .

- من قال ذلك ، لقد كان لنا حق ، وكانت لنا عدالة ، ولكن ليس كحقكم وعدالتكم هذه التى تحاول أن تهدر عمل ملك عظيم

مثلى ... ماذا يحدث لو عرف العالم الشرقى ميزاناً كميزانكم، سيصبح التاريخ صحائف بيضاء وسيكتب خمول الذكر والعفاء لهؤلاء العباقره والعطاء الذين برزوا على صفحاته ولم يكن هدفهم الحق والعدالة . كما تتحدث عنهما أنت ، بل المجد والعظمة والخلود ...

— التاريخ ... والعباقرة والمجد ... والخلود ... إن الإنسانية لم تؤمن بحجقات كما آمنت بهذه الأشياء ...

— ولكن إذا لم يكن المجد والعظمة .. والخلود غاية البشر هل تستطيع هذه الإنسانية أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام - سيظل للبشرية إيمانها بالمجد .. والتاريخ .. حتى لا تقيد نفسها بقيود الجمود — وما دام بعض الخلق — يولدون وفي صدورهم قلوب إلهية .. فمن العسير أن تصغى آذان هؤلاء إلى الحق والعدالة كما تتحدث عنهما أنت .. من الواجب ، أن يتسع المجال أمام هؤلاء الذين تجرى في عروقهم دماء الآلهة - ليقودوا الإنسانية دائماً .. إلى الأمام .. لاتحد حركتهم قيود أو مقاييس ..

— إن الذين قادوا الإنسانية، لم يكونوا أبداً آمن هؤلاء الذين التمسوا لأنفسهم القوة والجبروت، وحين نطالع نحن في أرضنا تاريخ البشر نجد أعظم النكسات التى أصابت الإنسانية كانت تقع فى

الأوقات التي تسلم فيها نفسها لأرادة القوة أو حين تصغى في نشوة
إلى تاريخ القوة ، ولو أننا أطلعناك على سجلات محكمتنا — لما
وجدت من كل ألف عظيم من عظماء تاريخكم واحدا استحق
قلبه البراءة في ميزان الآلهة ، أو يمكن بحق أن تقول إن له قلبا
إلهيا .. أو أن دماء الهية تجري في عروقه ..
— ولكن ..

فقاطعه أوزيريس وقال « كفى .. لقد استنفدت من وقتنا
أكثر مما ينبغي وتستحق .. خذوا المتهم وزنوا قلبه .. »
فتقدم حارسان فضيا بالملك ، صاحب القلب الإلهي
الكبير ، إلى حيث توزن القلوب وسمعه يحدث الحارسين حين
مروا بالقرب منى قائلا .. « إلى أى سبب يمكن أن يرد المرء
هذه المعاملة التي نلقاها نحن الملوك من هؤلاء الآلهة .. لا شك
أنهم يحسون كيف زاحمتهم مكانتهم على الدنيا .. »
وطوى إله العدالة أوراقه وصاح بتاح « رفعت الجلسة »

خلت القاعة من البشر ، وبقى الآلهة وحدهم لحظة من الزمن
يسمرون ويضحكون ثم أقبل « بتاح » يحمل بين يديه قلوب
المذنبين الثلاثة ، فأخذ مكانه بين الآلهة ووضع القلوب أمامهم . .
فمضوا يتأملونها ، ويتناولونها بين أيديهم . . ثم سأله أوزيريس
« كيف وجدت هذه القلوب ؟ » قال بتاح « لقد أظهر الميزان براءة
الفقير المثال » .

قال أوزيريس - والملكة . . . !

-- مذنب بمقدار يسير - لقد سألت كفة قلبها أمام ريشة
العدالة بما يمكن أن يقدر بنصف درهم . . . !
-- وخوفو . . . ؟

-- مذنب . . . كما لم أر أحدا من المذنبين . . .
فقال مات - اننى أعجب لأمر هذا الميزان ، عندما يكون الأمر
متعلقا بحب الإنسان أحس كأن خلا قد ألم به ، وأجد قلبي ممتلئا
بالشك فى أحكامه . . . إننى فى حياتى لم أر إنسان أحب ولم يلاحظه
الميزان بشئ من الرعاية والعطف .

فقال أوزيريس - ليس لنا « مات » أن نشك في ميزان العدالة
قال مات - هذا حق ... ولكن بصفى الإله الذى أقامته
الآلهه راعيا للحقيقة ، أتساءل كيف يصل الحال بالميزان الى الغض
من أمر الحقيقة التى بدت اليوم فى اعترافات المذنبين . فهذا فى
أحب امرأة لم تكن له ، وهذه امرأة أحبت رجلا غير زوجها .
فقال أوزيريس - إنك تدافع عن الحقيقة ... وهذا واجبك
وإذا كنت أنت تنظر للأمر من جانبك الخاص ، فإن من
واجب الميزان أن ينظر إليه من كل الجوانب ...

عندئذ تدخل « تحوت » الإله القمر، الأمين على أسرار المحبين
فى النقاش وقال « أعتقد أن الواجب يقتضى أن أقول كلمة فى
هذا الموضوع ، فقد يلمس بعدها أخى « مات » العذر للإنسان
والميزان ... »

واتجهت أبصار الآلهة كلها إلى « تحوت » فمضى يقول .. « إن
للحب قصة طويلة يجب أن أقصها على أسماعكم جميعا .. فقد نما
الحب على الأرض وأنا أرعاه وأحبسوه ، بما يمكن أن يتسع له
قلب إله مثلى من عطف وحنان - سأحدثكم كيف ولد الحب ...
وكيف وضعت بذرتة الأولى فى قلب الإنسان - لى أبدد هذا
الشك الذى ساور نفوسكم فى أمر الميزان - إنكم تعلمون من غير

شك، أننى عندما ولدت ، رلدت أعمى، لم يكن لى أن أبصر شيئاً
على الأرض حين يسطع نور الإله الأعظم « رع » وينير الوجود ،
كنت أسعى فى الظلمات وأنوارى خجلاً ، إذ لم يكن أحد يحس
بوجودى لأنى لم أكن أحس بالوجود... وحين كانت معابد الآلهة
كلها تزخر بالعباد ، كان معبدى الوحيد الذى لا يتردد فيه إلا
صوت كاهنه العجوز... ولعلكم تذكرون كيف توجهت إلى
الآلهة بالشكوى .. وكيف منحت عيني هذا النور الضعيف الذى
لا أبصر به إلا فى الليل - لقد بدأت منذ ذلك الحين ، أجوب
السموات عندما ينحدر « رع » وراء الأفق ، أنظر إلى الأرض
وأأمل ما يدب عليها . أردت أن ألفت أبصار البشر إلى لعبدوفى ،
رأيت يوماً جميلة تهتز أغصانها فى سكون الليل وجلاله ، يجرى
من تحتها جدول رقيق ، فسكبت عليها شيئاً من نورى الضعيف ،
فبدت الخميلة والجدول فتنة للناظرين .. ثم رأيت مرة ، هذا النيل
الأبدى ، يمضى متدفقا إلى الأرض الثانية بمياهه الكدرة ، فى هدأة
الليل ، فسكبت عليه شيئاً من ضيائى فبدأ كالفضة الصافية - وهذه
السحب السوداء الداكنة التى كانت تمتلئ بها السماء فى ليالى الظلمات ،
كنت أدع ضوئى ينفذ منها ، فتغدو كالمرايا ، حين يشرق فيها وجه
صباح ...

رأيت ضوئي يضيئ على كل شيء جمالا وسحرا . فقلت أحدث
نفسى إذا أردت « تحوت » أن تعبد ، فأحرى بك أن توقظ
الإنسان ذات ليلة ليرى هذا الجمال الذى تهبه الأشياء والكائنات ،
وعكفت لىالى أجوب الطرقات أطرق الأبواب لىكى يستيقظ
البشر فيروا هذا الجمال ، ولكن لشد ما أحرزنى ، أنهم كانوا يفتحون
عيونهم لحظة ثم سرعان ما يستسلمون بعدها للنوم ، قبل أن تمتلىء
عيونهم بهذا السحر والجمال . . . يئست واصطلحت على الأحزان
ورآنى « رع » الإله الأعظم يوما وأنا أبكى . . فسألتنى « ما يبكيك
أى « تحوت » الرقيق . . » قلت « أبكى جحود البشر . . . شكوت
له هذا الإنسان الذى لا يذهب إلى معبدى ، ولا يفتح عينه على
هذا الجمال الذى أضفيه على الكائنات والأشياء . . قلت أن ذكرى
سيفنى من الأرض . . فهل ترضى لإله مثل هذا الفناء . . »

وفيما أنا أحدث الإله الأعظم عن أسباب شقائى وآلامى -
أقبل أخى حورس - إله الخير ، ووجهه يدمى فسأله « رع » ما ذا
أصابك أى حورس أنت الآخر . . . قال وهو يبكى . . هذا
العمل الذى ينسج « ست » خيوط على الأرض . . . إن إله الشر
قد أضل أغلب الناس ، وزين اليهم حب الشر ، وهاهى ذى رذائلهم
تصعد إلى وجهى كصفعات تجرحه وتدميه . . . إنهم لا يستجيبيون

إلى نداء الخير الذى أدعوهم ليل نهار ، حين يهبون صوت «ست»
كل آذانهم وقلوبهم . . . وسيقفر معبدي عما قليل وسيطوى
الفناء ذكرى وأسمى ، وأنت أيها الإله الأعظم لا ترضى لإله ،
مثلى هذا الفناء . . . »

تقدم الإله الأعظم قرب على كتفينا فى حنان ، وسار بنا
قليلًا فى ملكوته السماوى وقال « لاتحزننا ولا تيأسا ، سوف يحس
الناس جمالك ياتحوت . . . وسوف يستجيبون الى ندائك يا حورس ،
قلنا فى صوت واحد - « كيف يكون لنا هذا . . ؟ » قال « ستريان
ثم ناولنا شعلة أوقدها من نوره المقدس وقال « امض ياتحوت
بهذه الشعلة إلى الأرض . . ودعها تشرق على قلوب البشر . . ستري
كيف يحسرون الجمال ويعشقونه . وسترى كيف يمتلئ معبدك
بالخاشعين والمضلين . . » وتوجه الى « حورس وقال « وسترى
يا حورس عند ما تضىء الشعلة هذه القلوب ، كيف أنهم أصبحوا
أقدر على رؤية أنوار الخير التى تبذرهما فى كل مكان . . . وسيكون
انصرك على « ست » نصرا مميذا . . . » فسجدنا للإله الأعظم
شاكرين وقلنا نسعى بها فرحين الى الأرض وسمعت « رع » يقول
لقد حملتك ياتحوت شعلة الحب وأصبح من واجبك أن تفتح ،
عينيك دائما أبدا لرعاية المحبين . . . »

ومضيت أنا وحورس إلى الأرض في هدأة الليل .. انظر ق
الأبواب ونضئ معاً قلوب البشر بالشعلة المقدسة .. وفي الحق أننا
لم نترك مكاناً على الأرض .. ولم نترك إنساناً ، فلم نعرض قلبه للنور
المقدس .. حتى الطير والزهر .. قد حظيا برؤية هذا النور .. وكان
أن استيقظت البشرية كلها في اليوم التالي وفتحت عينيها جيداً
- لأول مرة - على الجمال .. وفي الليلة التالية رأيت معبدى ومعبد
حورس ، يزخران بالعابدين .. ورأيت « ست » إله الشر يربض
عند نهاية الأفق ، يسكب على الرمال دموعه السوداء .. لأن
معبده قد أقفر من المصلين ، ولأن أحداً لم يكن يصغى إلى صوته
البيغض . ولكن حدث ما تنبأ به « رع » لم يعد لى أن أغمض عيني
لحظة واحدة ، لكثرة ما يحتاج المحبون من رعاية .. ! ولم يعد لأذنى أن
تغفو لكثرة ما يصلها من نجوى وأنين .. ثم صمت الإله لحظة وقال :
ولكنى مع ذلك سعيد . تلك يا إخوانى قصة الحب .. خلقه « رع »
الإله الأعظم من نوره .. وأضأت أنا وحورس به قلوب البشر ،
لكى يعبدوا الجمال ويحبوا الخير .. وأنتم تعلمون أن ليس لليزان
أن يتعرض لكل ما هو إلهى .

وحين فرغ « تحوت » من قصته ، ساد الصمت لحظة ثم قال

مات «ولكن ماقولك «تحت» وهاهو الميزان قد أدان الملكة ..
ألم يكن الحب جريمتها .. !»

فقال «تحت» أنا أطلعك على السر .. ولكن أرجو أن
تكون عليه حفيظا .. لأننى أخشى وأنا الرفيق على المحبين أن يصل
إلى قلب مرى فيحطمه — لقد كان قلب الفتى يتجه إليها دائماً لم
يغفل عن ذكر الحب طرفة عين .. أما هى فقد كانت تنأى بقلبها
بعيداً عنه فى بعض اللحظات ..

فسأله «بتاح» : وإلى أى مكان كان يذهب هذا القلب .. !
فقال تحت : ليس لى أن أجيب هذا السؤال ، وأنا الآمين
على أسرار المحبين ..

فقال أوزيريس : ولكن ما رأيك «تحت» لقد رأيت فى سجل
هذا الفتى امرأة أخرى ..

فقال تحت : تعنى هذه الوصيفة — أننى لم أبارك فى أى يوم
من الأيام حبها ، وليس لحب لم أباركه أن يعيش .. لقد كان
من واجبي وقد كرس هذا الفتى الفنان حياته وفكره لخدمة
الجمال ، والعمل على تخليده أن أهنيء لحبه ، قلباً ذهبياً .

فقال حورس : إذن لم يعد غريباً فى نظرنا أن يظهر الميزان

براءة الفتى المثال وقد أخلص للحب وأن يدين المملكة التي لم تهيبه
كل قلبها . !

فقال مات : وكيف يحدث ذلك ، والشعلة التي تضيء القلبين
واحدة كما سمعت من « تحوت » الان .

فقال تحوت : أنا أحدثك عن السبب — إن الجسد الذى
حملت به المرأة ثقيل ، لذا كنت أرى الحب الذى يرفع الرجل
عشرات الدرجات إلى السماء ، لا يكاد يرتفع بالمرأة إلا درجة
أو درجتين .

عندئذ قال أوزيريس « حسبنا هذا . لقد انتبهينا من أمر » مرى
ونفرتي « هل بينكم من يود أن يدفع عن خوفو بعض وزره .. »
فلم ينطق أحد من الآلهة . وتابع أوزيريس حديثه فقال : « لننظر
إذن فى الجزاء ، ماذا تقترحون لعقابه . »

فقال بتاح : إن خوفو مفتون بالأرض الشرقية ، مفتون
بالمجد والعظمة والخلود ، مزهو بقلبه الكبير .. لقد كانت كلها
أسباب آثامه ، أنى أرى أن نجعلها مصدر عذابه وآلامه — فإذا
وافقتم كان فى وسعى أن أقترح عليكم رده إلى الأرض الشرقية
مرة أخرى . وهناك يجب أن ندع نسيهها يهب عليه بالضعة
والحقارة .. وأن ندع هذه الأشياء التي فتنته — أعنى المجد والعظمة

والخلود - تأتى إلى عقله وحواسه فارغة لا معنى لها . فسأله أوزيريس :
وما العمل فى قلبه الكبير .

فأجاب بتاح : إتركه له ودع معانى الاشياء ترقى إليه وضيعة
حقيرة فى الدنيا .

واتجه أوزيريس ببصره إلى الالهة وقال « أتوافقون على ذلك »
فوافقوا عليه جميعاً . فقال « حسنا لقد إنتهينا من أمر خرفو . .
ماذا ترون فى أمر نفر تيتى »

فقال مات : « لقد كان قلبها أصل البلاء . إنه هو الذى أضلها ،
ماذا علينا لو نزعنا هذا القلب ، وتركناها تسعى بين الاموات
بغير قلب »

فاعترض تحوت على هذا الاقتراح وقال « أيها الرئيس لا يجب
أن تسمح بمثل هذا العقاب لامرأة أبداً »
فقال أوزيريس : ولكنك أيها الرئيس قضيت به على رجال
كثيرين .

أوزيريس : أجل . . إن للرجل عقله . . ولكن كيف تستطيع
الحياة ، امرأة نزع قلبها .

مات : ولكن عدالة أوزيريس لا تفرق بين الرجال والنساء
فى أمر واحد .

أوزيريس - إن حكمة عدالتنا فوق كل اعتراض ... !
عندئذ لزم « مات » الصمت .. وتوجه بتساح إلى أوزيريس
بالسؤال فقال « نريد أن نعرف أولا كيف بدا ذنبها في عين إله
العدالة .. أتعاقب لأنها كانت تنأى بقلبها بعيدا عن حبيبها في
بعض الأحيان ، أم لأنها خدعت زوجها في كل الأحيان ... »
فقال تحوت - لأنها كانت تنأى بقلبها عن حبيبها أولا . فليس
لنا أن نغتفر لها عدم إيمانها بالحب الإيمان كله ..
وقال أوزيريس - ولا تنس أن هذا الحب قد باركته الآلهة .
والان ماذا تقترحون لها من عقاب ..
فقال حورس - مارأيك أيها الرئيس - مادمننا قد بدأنا نجرب
الأرض الشرقية في عقاب الأموات - أن نبعثها هي الأخرى إلى
هذه الحياة ... إننى أقترح أن نبعثها بقلبها ، وأن نبعث في هذا
القلب حبها القديم بكل قوته ..
أوزيريس - وبعد ذلك ..
حورس - نبعث معها مرى .
عندئذ قاطعه « مات » بقوله اننى أقترح أن نبعث الفتى معها ،
ولكن بغير قلب .. لن يجد حبها جوابا له في نفسه .
فقال تحوت - ذلك عقاب لا يحتمل . ولكن ما ذنب الفتى ؟

حورس - اننى لم أقصد عذابه - وما كان لى أن أفكر فى هذا
وقد برأه الميزان . إننا سنبعث جسده فقط ، أما قلبه فسيظل هنا
الى جوار الالهة لينعم بما قدم من عمل فى الحياة الأولى .

أوزيريس - إننى أوافق على هذا .. إن القلب هو كل
الإنسان وهو وحده ، الذى يستطيع أن يستشعر النعيم
الذى تمتلئ به دنيانا . وأنتم تعملون أنه لاشئ هنا لمتعات الجسد
الفانى .. فإذا تحرر القلب من هذا الجسد ، كان الإحساس
بالنعيم أوفى وأتم . وأعتقد أنه لن يضير عدالتنا كثيرا ، أن تأخذ
هذا الجسد لتعذب به امرأة أخطأت .. أتوافقون على هذا ..
تحت - إنه جزاء حق لإمرأة لم تهب للحب قلبها .

مات - ولم تخلص لزوجها ..

أوزيريس - حسنا .. ان كلا منكم ينظر للأمر من وجهته
الخاصة ان هذا لا يضير ، ما دمتم جميعا توافقون .. وبعد ، ففى
وسعى الان وقد انتهينا من تقدير أعمال هؤلاء البشر أن أتقدم
إليك بشكرى - لقد عاوتنمونى فى كشف الحق ، ويسرتم على أمر
العدالة فى أخطر قضية عرضت على فى حياتى هذه ..

عندئذ نهض «بتاح» وحمل القلوب الثلاثة من أمام الالهة
ومضى بها الى حيث ترك أجسادها عند الميزان وفتح صدرها وثبت

فى كل جسد قلبه .. ولم تلبث الحياة أن ارتدت اليهم جميعا
فنهضوا وساروا مع بتاح الى حيث أوقفهم أمام الآلهة ثم نفخ فى
البوق فعاد البشر إلى القاعة لكي يستمعوا إلى الأحكام ورفع « مات »
شعلة الحقيقة بيده عاليا .. وساد صمت رهيب لم يلبث أن قطعه
أوزيريس بصوته وهو ينادى « خوفو » إنك مذنب لقد قضينا
برذك إلى الحياة على الأرض الشرقية ، ستعود بقلبك الكبير
وياسمك الذى تزهر به ، وسترى هرمك مرة أخرى .. هذا الهرم
الذى تزعم أنك أقمته به صرح خلودك ومجدك وعظمتك »

فقال الملك — حسنا — لا بأس من هذا .. لقد بدأت أضيق
بهذه الأرض ، التى لا ألقى عليها التقدير الذى أستحقه .

ولم يعقب أوزيريس بشيء على كلمات الملك واتجه إلى نفر تيتي
وقال : « وأنت ستردين إلى الحياة أيضا »

فقاطعتة الملكة — « وحدي .. ! »

أوزيريس — كلا سيصحبك مري

نفر تيتي — « شكرا .. شكرا للإله العادل ، الذى فاقت
عدائته كل الحدود » ثم تسجد وتقول : اننى أسجد لعدالتك ،
آه سأجد نفسى مرة أخرى مع الحبيب ، سأخلص له الحب هذه
المرة .. وسنكون وحدنا بغير رقيب — يا للسعادة . فيقول

أوزيريس موجهاً حديثه الى الملك والملكة ، انه عقابكما فيقولان -
إنها رحمة كبرى .

فيصيح أوزيريس فيهما - «قلت إنه عقابكما ، وليس لعقل بشرى
أن يسبر أغوار الحكمة الإلهية ، ثم يتوجه الى مري ويقول :
«والان تقدم أيها الفقى .. اننى أعلن على الملأ براءتك ، وبذلك
نختم على أعمالنا هذا اليوم »

استقبل الأموات قضاء أوزيريس بشيء من الدهشة والعجب
وبدا من حديثهم ونظراتهم كأنهم يشهدون نوعا من الحساب
والعقاب ليس لهم بهما عهد من قبل ، ولا شك أن الآلهة قد
لاحظوا أن القوم لم يستقبلوا حكمهم بالرضا ، حتى أنهم نسوا أن
يسجدوا لهم حين نهضوا خارجين - وحين أقفرت القاعة من البشر
توجه إله العدالة إلى زملائه وقال : إنهم بشر ، على كل حال ، من
حقهم أن يتأولوا ما نقضى به ، بحسب أهوائهم وعقولهم ، وستظل
حكمة الآلهة مع كل هذا ، كالجوهر النادر ، الكامن في اعماق
الأرض ، ليس للإنسان أن يصل إليه الا بعد أن يبذل من فكره
وعرقه وصبره الشيء الكثير . . . »

وبينما كان أوزيريس يتحدث إلى الآلهة بهذا الحديث ، ليسرى
عنهم هذا الجحود الذي طالعه في وجوه البشر وسلوكهم ، برز من
الظلمات شبح له هيئة مفزعة ، ثم مضى يسعى في القاعة ، لا يتردد
لخطواته صوت كأنما يمشى في الهواء ، وما زال يسعى ، حتى

وقف بين الملك والملسكة ، وهما لا يحسان وقفته ثم ارتفع يداه فأمسّت بذراعيهما - وما أن وقعت عيناها عليه حتى صرخت الملسكة وسعت إلى الخلاص من قبضته أما الملك فقد حاول بكل قوته أن يرفع بيده تلك اليد التي أطبقت عليه ، وحين أعجزته شدتها صاح في ألم « ارفع يدك عنى ... ارفع يدك عنى ... من تكون ؟ » ونظر الشبح إليه نظرات جامدة ، ثم نقل بصره إلى الملسكة التي وضعت كفها على عينيها ، ثم قال فى صوت مخيف

- « ارفعى يدك أيتها الحسناء ، لتنظرى وجهى الجميل ... ! » وأتمثلت الملسكة لأمره ورفعت كفها عن وجهها فى استسلام وخوف ثم راحت تتأمل وجهه، تراءت لها عيناه المستديران وهما يشعان لها أحمر مخيفا - وتراءى لها وجهه القبيح وقد توجهته جبهة ضيقة وشعر أشعث أغبر ، وبرزت منه أسنان طويلة معوجة أما إبتسامته الكئيبة التي امتلأت حقدا وسخرية ، فقد بدت أرباب ما طالعه الملكة الجميلة عل هذا الوجه الدميم ...

و حين رأى الملك هذه المرأة الرقيقة تهتز فى قبضة الشبح صاح « دعنا .. فضحك ضحكة عالية ردها الفضاء كعواء رهيب .. قال : ألا تعرفانى .. إننى رفيقك منذ اللحظة .. لقد

تخلت عنكما الآلهة ، ولم يعد لكما سوى .. إن شكلي لا يروقكما
ولكننا سنغدوا بالرغم من هذا رفاقا وصحابا .. هيا إتبعاني
يا صاحبي .

وحين رغب في المضي بهما إرتدت المملكة فزعة الى الوراء
وتشبث الملك بمكانه ، فصاح الشبح يتوعدهما في صوت كقصف
الرعد : لن يعصمكما مني عاصم .. إتبعاني ..

ثم جذبهما من ذراعيهما في عنف وقسوة ، فتبعاه ، ومضى
بهما في طريق الظلمات

وحين بصر مرى بالمملكة وهي تسعى مرتجفة في قبضة الشبح
مضى مسرعا في إثرها فتاداه أوزريس وقال :
أيها الفتى .. الى أين

فقال مرى : أريد أن أمضى مع المرأة التي أحبتها

فقال الإله : هل تريد أن تتبع الشيطان ..

فوقف الفتى مسمرا في مكانه ، وتابع أوزريس حديثه وقال :

— لن يطاوعك قلبك الطاهر فتتبع الشيطان

فقال الفتى : ولكن كيف تدعها له أيها الإله العادل ؟

فقال إله العدالة : إنها مذنبه تخلى عنها الآلهة ، فتلقاها الشيطان .

هذا شريعة هذه الأرض

مرى : ولكنك قضيت بردنا إلى الحياة معا..

أوزيريس : إنك ستلقاها هناك .. ولكن يجب أن تعلم أن جزاءك لن يكون على الدنيا فما كانت الحياة الشرقية في يوم من الأيام إلا جزاء يجزى به الخاطئون . إن ثوابك هنا .. وليس لك أن تطمح إلى معرفة الأسرار الإلهية .. هنا سيجد قلبك النعيم الذي يستحقه ، إنك ستذهب الآن في صحبة الآلهة ، إلى شجرة الحياة حيث تنفض في ظلالها عن نفسك عبء السنين التي حملتها .. وستشرب هناك الخمر معهم ، وستطعم من ثمرتها الخالدة ، لكي ترد عليك شبابك - مرة أخرى - غصنا زاهرا .. وسأمنحك بعد ذلك عشر دقائق تلقى فيها صاحبك قبل أن ترحل عن هذه الأرض ، ستلقاها بقلبك النشوان بلذة خمرنا ، وبشبابك الغض الجديد .. حاول أن تسعد قلبك في هذه الدقائق ، إنني أعلم أن نعيم آخر أعظم ، ينتظر هذا القنب في جنات النعيم ، ولكنني أعرف أيضا أن هذا القلب حتى ، حين يغرق في فيض نعيمنا الروحي ، ما ينفك يتطلع إلى نسمات الحب التي هبت عليه في الدنيا .. أريد أن تبعث الحب القديم في قلب الملكة أقوى مما كان وأروع ... والآن ستمضى مع الآلهة .

وحين فرغ أوزيريس من حديثه نهض الآلهة ، وسعى الفتي

بينهم وقد عقدت الدهشة لسانه ، وانطلقوا جميعا فرحين إلى
الشجرة الخالدة ، ولم ينسوا - هذه المرة - أن يسجدوا جميعا لرب
العدالة ، قبل أن يمضوا خارجين

وحين خرج الآلهة بالفتى الطاهر القلب ، ترك أوزيريس عرشه
ومضى يذرع القاعة جيئة وذهابا ، وقد ارتسمت على وجهه إمارات
التفكير العميق ، ثم قال يحدث نفسه :- إننى كلما أحسست بثقل
عبء العدالة الذى وضعه الآلهة على اكتافى أعجب أشد العجب
لأمر هؤلاء البشر الذين يضطلعون بحمل عبئها على الدنيا ... لاشك
أن كثيرين منهم ينتسبون الى الآلهة أنفسهم ..

ثم وقف فجأة كمن تذكر شيئا وقال :

— لقد نسيت أن أتدبر مع الآلهة أمر رد هؤلاء الأموات إلى
الحياة ، كيف يتأتى لى أن أفعل ذلك ولم يعد فى وسعى أن أنتقل
إلى الارض الشرقية ..

وجاءه صوت من الظلمات يقول له : « إذن دعنى أدبر لك
هذا الأمر » .

وبرز الشبح مرة أخرى من الظلمات .. فقال أوزيريس :

— الشيطان ... !

— أجل أيها الإله ... إني الوحيد الذى يستطيع أن ينفذ الى
الدنيا من بين كل الخلائق التى تحيا على هذه الأرض ..

— إنى أعلم ذلك ..

— وأنت تعلم أيضاً أيها الإله .. أنتى أقوم بدور عظيم هناك،
إنى ما زلت الى اليوم ، أزود هذه الأرض بالقدر الأعظم من
حاجاتها ، حتى أن الآلهة أنفسهم، يشكون كثيراً فى إمكان استمرار
هذه الحياة ، إذا تخلّيت أنا عن القيام بهذا الدور العظيم عليها !..
— لا تتحدث عن نفسك بمثل هذا الغرور .. أيها الشيطان .

— إن العالم لم يشهد مخلوقاً أكثر تواضعاً منى .. وها أنذا
فى خدمتك أيها الإله !..

— هل فى وسعك أن تحمل هؤلاء الأموات الى الأرض

الشرقية ؟

— أجل أيها الإله .

— أريد قبل أن تقذف بهم إليها ، أن تذهب بالملسكة الى مرى
عند شجرة الحياة ، دعها تلقى فتاها هناك ثم اختر لها مكاناً جميلاً
ليساعد على بعث ذكريات الحب القديم ، إذ من الواجب أن يبعث
هذا الحب مرة أخرى فى قلبهما قوياً لا يدفع ، كى تستشعر هول
العذاب الذى قضينا عليها به ، أريد أن يمضى الحب المبعوث الى كل

ذرة في جسدها ، وأن يسرى مع الحياة في دمها وقلبها ، وإذا انقضت
الدقائق التي منحتها لها ، إنزع من الفتي قلبه ، واقدف به الى جنات
النعيم ، ثم اذهب بعد ذلك الى الملك خوفو وارفع عن عقله
الملسكات التي يدرك بها الانسان معاني العظمة والمجد والخلود ،
وإذا كان على الحياة إجعل هذه الكلمات تأتي اليه فارغة لا معنى لها ،
ودع نسيم الحياة يهب عليه حقيراً وضعيلاً .

فقال الشيطان — ولسكني أعرف أن له قلباً كبيراً ، فكيف
يستجيب هذا الانسان بقلبه الكبير لمثل هذه الحياة ..

فقال أوزريس — هذا عذابه الذي قضينا عليه به .

قال الشيطان — والمملكة .. ؟

قال إله العدل — لا تتعرض لها بشيء ..

قال الشيطان — حسناً ، إن في وسعي الآن وقد علمت حكمتك

أن أسجد شكر آ لك ، أيها الإله العظيم ..

إله العدالة - لن يكون لك أيها الشيطان أن تحيط بحكمتي ..

الشيطان — حسبي أن أعرف أن شعلة الشر التي أتعهد لها على

الأرض ستجد في هؤلاء الأموات المبعوثين زيتاً ترتفع به

الى مدى لم تبلغه في أى وقت من الأوقات ، إننى أشكرك لهذا

السبب أيها الإله ..

وابتسم الشيطان إبتسامة ساخرة ، وهو يسجد فى خشوع لإله
العدالة.. الذى قال له « لن يكون لك أن تسبر أغوار حكمتى .. »
ثم تركه ومضى خارجاً .

وحين اختفى أوزيريس عن بصر الشيطان سمع صوتاً رهيباً
يدوى حوله ويقول له « كيف تسجد هكذا أيها الشيطان لآله
غبرى .. » وانشقت الأرض من «ست» إله الشر .. فخر الشيطان
على الأرض صعقاً وقال وهو ير تجف تحت أقدام إله الشر ..
لقد ارتكب أخوك أوزيريس خطأ جسيماً لقد أمدنا بعون عظيم ،
ستمثله به الأرض ، رذائل وشروراً وظلمات ، وستجد الإنسانية
أنه من العسير عليها ، ما بقينا محتفظين بهذه الهبة الالهية العظيمة ،
أن تتجه بأبصارها لشيء غير التراب .. أجل لن تتجه أبداً الى السماء »
فقال ست — بأى شيء أمدك .. حتى يستحق عليه هذا الشكر ،
وهذا السجود ..

قال الشيطان : إنسان بغير قلب ، وامرأة قد انشئت بحبه ،
وقلب كبير ، لن يكون للحياة أن تهب عليه بشيء غير الضعة
والحقارة .

فابتسم إله الشر وقال — ... هذا نصر عظيم ، حقاً لقد
أخطأ أوزيريس — مرة أخرى — خطأ جسيماً ..

قال الشيطان — ولا تنسى أيها الإله أن حياة هؤلاء الناس
ستتخذ على الأرض .. لأن هذا هو بعثهم ...

فقال ست — تولهم إذن برعايتك وعطفك ، وسيكون
نصرنا هذه المرة على عناصر الخير نصراً عظيماً ومؤزراً ، والآن
يمكنك أن تمضي فيما أنت بسبيله ، وسأنظر في الغد ماذا فعلت ،
ولا تنسى أن تنقل إلى من وقت لآخر خبر هؤلاء القوم .

وانشقت الأرض مرة أخرى فهبط إليه الشر واختفى عن
الأنظار ، ثم نهض الشيطان واقفاً على قدميه ، ومضى في طريقه إلى
الظلمات ..

عاد الشيطان إلى المسكان الذى ترك فيه الملك والمملكة - وبدأ
كأنهما ألفا منظره وأطمأنا إليه ، إذ قال له الملك « لقد تركتنا
ووجدنا فى هذه الظلمات » قال الشيطان « معذرة إن كنت قد
تأخرت بعض الوقت »

وسأله الملك : « متى أسعى إلى مري ، لقد وعدتني بذلك ... »
فقال — ستمضين بعد لحظة ، والآن أيها الملك ، إننى أريد
أن أتحدث إليك بكلمة ..

فنهض الملك مسرعاً ومضى يسعى إلى جانب الشيطان ..
قال الملك : إننى مازلت أعجبت لأمر هؤلاء الآلهة ، كيف
لا يلقى هذا المجد الذى كسبته ، التقدير من أوزيريس ، وهذه
العظمة التى أقمت صرحها على الأرض ، لماذا لم ترقه ... ؟ وهذا
الاسم الخالد ، لماذا لم يحسن وقعه فى أذنيه ... ؟

قال الشيطان : فى الحق لست أدرى ...

قال الملك : لماذا حال بيني وبين النعيم الذى قضى به لكثيرين
أدنى منى مجدا وأقل فخاراً ، لقد كنت آمل أن يهبنى أفقا فسيحا
يمتد لينبض قلبي فيه نبضاته القوية الجبارة ، فيصغى إليه هذا العالم

القديم .. ألا تعرف أن دقائق هذا القلب مازالت تتجاوب على الأرض الشرقية إلى اليوم ، تردد مجدى وعظمتى وخلودى ..

— إننى أعرف ذلك ..

— ألا ترى معى ، أن حكمة الآلهة هنا تبدو غامضة مبهمه ..

— حقاً إنها تبدو كذلك فى عينى أيضاً ! ..

وامتدت يد الشيطان إلى مؤخر رأس الملك فنفذت فيها ،

فقال الملك « ماذا تفعل ... ؟ ! »

قال الشيطان — لاشئ .. إنتظر .. لاتتحرك .. » ثم أخرج يده وقال : « تحدث الآن .. ماذا فعل أوزيريس .. وما الذى تتجاوب به دقائق قلبك على الأرض الشرقية ... ؟ » وظل الملك لحظة صامتاً لا يتحدث بشئ .. فعاد الشيطان فسأله « تكلم ماذا فعل أوزيريس ... ؟ »

كان لسان الملك يتحرك ولا تخرج عليه الكلمات ، وابتسم الشيطان ابتسامته الساخرة ، ونظر إلى خوفه وقال « تحدث عن المجد والعظمة والخلود ... »

فقال الملك فى كلمات متقطعة .. « ماذا تقول .. ماذا تقول .. »

إننى لم أفهم شيئاً .. ماذا تقول ؟

فقال الشيطان — كنت أتحدث اليك أيها الملك العظيم في
المجد والعظمة والخلود ..

فقال — لا أفهم ، لا أفهم ماذا تعنى ، أننى أحس بدوار يعصف
برأسى ..

فقال له الشيطان : أرقد ..

واستسلم الملك للأمر الذى ألقى إليه ، ثم لم يلبث أن أسلم
نفسه للنوم وبدأ يغط غطيظاً مزعجاً .. ونظر الشيطان إليه ورفع
في يده خيوطاً رفيعة لا تكاد تثنينا العين ، وقال : هذه هى
الملكات التى كنت تحس بها معانى المجد ، والعظمة والخلود .

ثم تركه فى مكانه ومضى إلى الملكة فلقيته بقوطاً : إن هذه
الظلمات تكاد تسلمنى للجنون ..

فقال الشيطان : تعالى معى لأسعى بك إلى صاحبك ..

وفى ظلال الشجرة الخالدة ، وعلى ربوة رملية قليلة الارتفاع
تشرف من قرب على أطلال معبد قديم ، تحيط بها من كل جانب
أزهار اللوتس الزرقاء ، وتأتى إليها من بعيد أصدااء موسيقى غريبة
النغم ، جلس مرى ونقرتقى جنباً إلى جنب ، والشيطان يرقبهما
وهما لا يرياناه .

وقالت الملكة وهى تملأ عينها وحواسها من روعة المكان :

ياله من مكان جميل .. ! مرى ها نحن أخيراً لقد آمنت بالبعث ،
آمنت به لأنك إلى جوارى .

قال مرى : إننى لم أشك أبداً وأنا على الحياة فى محبى
هذا اليوم ..

قالت : إن حبك يامرى هو الذى بعثنا لأجله .. كم هى رفيقة
هذه الآلهة ، لماذا كنا نخشاهم على الأرض ، لقد بدت رفيقة
شفوق ، لقد ملأ الكهنة على الأرض قلوب الناس خوفاً وفزعاً
منهم ، لكي يبقى الناس على ولائهم لهم ، وليقربوا لهم القرابين ،
تكلم يامرى ، إننى أريد أن أسمع هذا الفضاء يردد صوتك الجميل .
تحدث ، هذا أول لقاء بيننا بعد أن ودعتك ، إلى متى امتدت بك
الحياة بعدى ..

قال : إننى لم أشعر قط بالحياة بعد أن ودعتها ، ثم ما لبثت أن
شعرت بعد أيام من رحيلك ، أننى أصبح فى تيه من الظلمات ،
فأدركت أننى مت ... !

قالت : وما زلت تحببى يامرى ...

قال : أجل ، كما لم أحب شيئاً فى الوجود ..

قالت : أنظر يامرى ، ها هو القمر قد بدأ يلعب فى السماء ،

ما أجمل الحياه فى ضوء القمر على الرمال ، وما أروع أن ينبض القلب بالحب فى مثل هذا المكان ..

وبدأ الشيطان يبعث إليهما من مكانه الخفى بنسيم رقيق مفعم بذكرىات الهوى القديم ، ما أن تلقتهم المملكة حتى قالت : ألا تشبه هذه اللحظة يامرى ، تلك اللحظات التى قضيناها فى الحياة الأولى على أحجار المعبد الباردة فى ضوء القمر بعيدين عن الناس ، كنا نحس أن العالم قد أقفر من البشر ، فلم يبق فيه إلا أنا وأنت والحب ، كنا نمضى الوقت صامتين يغمر الدفء قلوبنا حتى فى قر الشتاء ، لم تكن نحس خشونة الأحجار وقسوة البرد ، لم أكن أعلم يامرى ، قبل تلك اللحظات ، أن فى وسع الحب أن يغمر الحياة بهذا الفيض من الجمال والنشوة والسعادة .

قال : أحس الآن أن هذه اللحظة تزن العالم كله ، لم أحس بالجمال والنشوة ، كما أحس بهما الآن ، هذا الشعور الجميل الذى يفيض بالأمان والسكينة على القلب والروح ، لم أشعر به قبل اليوم فتقول له المملكة .. « إن الحب المبعوث لا بد أن يكون أجمل من الحب نفسه ... »

فيقول الفتى — هذا عالم ساحر ..

ثم يتعانقان ، لى تعبر الشفاه بأسلوب أكثر إبانة عما يعتمل

في نفسيهما من نشوة ، ويقول الفتى « ألا ما أجمل هذه القبلة ..
تبدو كأنها جماع السعادة التي يحلم بها جميع الناس على الأرضين ،
أى سلام ، وأية طمأنينة ، يجتمعان هكذا في ظلال الحب ، لم
يحدث ذلك في أى وقت من الأوقات .. » ويمضى الفتى يعانقها ويقبلها
كما يؤكد هذه المعاني في نفسه ونفسها ..

وفيما هما منتشيان بسحر الهوى وروعة الغرام ، أحست الملكة
بنسيم آخر يهب عليها ، كان الشيطان قد أرسله إليهما منذ هنيهة ،
فبدأ صدرها يعلو ويهبط ، وأحس بها الفتى ترتجف على صدره
فسألهما : ماذا حدث يا مليكتي المحبوبة .. ؟

فقالت : وهى تخرج أنفاسها فى جهد « إني خائفة .. خائفة .. »

قال : لماذا .. أيتها الحبيبة ..

قالت : لقد بلغنا الغاية ، وانتهينا إلى الكمال فى هذا الحب ..

قال : إنها إرادة الآلهة ..

قالت : إن كل شئ يكمل يؤذن بالنقصان ، وكل شئ يبلغ
الغاية ، ينزع إلى الفناء .. إنها حكمة قديمة حققتها الأيام يا مرمى .

قال : إلا على الحب ، إن العوارض التى تصيب الأشياء
والأحياء ، لا سلطان لها عليه ، إنه شئ خالد ..

قالت : هل ستظل على حى ، عندما ترد إلى الحياة .. ؟

قال : أجل ، وهل يطوف بخيالك أن يحدث غير هذا ، إنني سأظل على حبك حتى بعد أن يفنى الزمن ، وتندك معالم الحياة ..
وشعر الفتى بذراعيها تشبثان بعنقه ، وهي تنظر خائفة أمامها وتقول وهي ترتعش « أنظر .. أنظر .. لا تسلمني إليه .. لا تسلمني إليه .. » ، ونظر الفتى إلى حيث توجهت الملكة بنظراتها فوجد الشيطان واقفا أمامه ، فصاح فيه « ماذا تريد .. ! وكيف تقتحم على حبيبين محرابهما المقدس .. ؟ ألا تعلم أن الآلهة هي التي قضت لنا بهذا اللقاء .. ؟ ..

فقال الشيطان : لقد أذن الوقت الذي منحتك لك الآلهة بالانتهاء ، وليس لك أيها الإنسان الطاهر القلب ، أن تدنس هذا القلب ، بالمروق على سلطان الآلهة .

قال مري : ماذا تريد .. ؟

قال الشيطان : إمض معي ...

قال مري : إلى أين .. ؟

قال الشيطان : لن أصيبك بسوء مادام هذا القلب الطاهر - الذي باركته الآلهة - يذبض في صدرك .. إنهض أيها الفتى ، ولا تعص أمر الآلهة ...

وحين هم مري بالنهوض ، حتى لا يعصى أمر الآلهة ، قالت

الملكة « لا تدعنى وحدى .. لا تدعنى .. » فقال لها الفتى « سوف
أعود مرة أخرى .. » ثم يسائل الشيطان « أليس كذلك »
فيجيبه الشيطان — أجل .. أجل .. لقد قضت الآلهة برديكما
معاً إلى الحياة ، وليس لكائن على الأرضين أن يمنع قضاء الآلهة
من التنفيذ .

فيقول الفتى للملكة : « إلى اللقاء إذن يا مليكتي المحبوبة .. »
ويتجه الشيطان إلى ناحية الفتى ويهمس في أذنه « قبلها أيها الفتى
قبله أخيرة . »

وتردد « مرى » هذا الفتى ، الذى لم يستجب قلبه قط ، إلى
صوت الشيطان ، ونظر إلى الملكة ورأى فى عينيها رغبة جامحة ،
فى الاستمتاع بما هتف به الشيطان .. فقال إليها وقبلها !

وبينما كان الفتى يسعى فى صحبة الشيطان قال يحدثه : لقد كانت
هذه اللحظة مصدرأ لمتعات لا توصف ولا تقدر

فقال له الشيطان : وعلى هذه المتعات سيعيش قلبك فى النعيم
إلى الأبد .

قال الفتى : ولكن حدثنى ، أى حس جديد هذا الذى زودتنى
به الآلهة ؟

قال الشيطان : هل نسيت أن قلبك يعيش في النعيم منذ نطق
أوزريس ببراءتك .

فقال الفتى مزهواً بقلبه : ما أسعد ، أن أرتد إلى الحياة
بهذا القلب .

وأربد وجه الشيطان — وبرقت عيناه بلهب أحمر خفيف ،
وامتدت يده في سرعة ونفذت إلى جوف الفتى الذى صاح فى ألم
« قلبي . . قلبي »

وردد الشيطان فى سخرية : « أيها الإنسان المغرور — ما كان
لك أن تطمح إلى نعيم على الأرض .. » وأخرج يده من جوف الشاب
وقد أمسك فى قبضته قلبه الذى يقطر بالدماء .. وهوى « مرى »
على الأرض وهو يخرج أناته الضعيفة الخافتة ، ثم مالبت أن طواه
سكون رهيب — وقذف الشيطان بالقلب الطاهر فى الفضاء وهو
يقول : « لست فى حاجة إليك على الأرض .. فى وسعنى أن
أؤدى رسالتى ، وأنت بعيد عنها ، على أكمل وأيسر ما يكون الأداء ؟ »
واستحال القلب الطاهر إلى قطعة من النور ، ونبتت له أجنحة
صغيرة رقيقة مضت ترفرف فى الفضاء ، حتى بلغ السموات فاستقبله
عند أبوابها ملائكة النعيم ، ولم يلبث أن اختفى فى أصداء موسيقى
حلوة النغم ، ساحرة الألحان .

إختفت المناظر والرؤى من أمامى ، وبدأ نظرى يسبح فى
ظلمات بعضها فوق بعض لا تجد العين فيها منفذاً ، إلى شىء ، وبعد
لحظات بدأت هذه الظلمات تتكشف رويداً رويداً .. وأشرق
نور خفيف من ناحية الشرق رأيت على ضوئه - مرة أخرى -
صحراء الأهرام برمالها وأطلالها ، ثم بصرت بالظلمات قد تجمعت
فى ركن من أركان الأرض لا تتحرك ولا تتحول عنه .. وتألق
بعد هنيهة نجم صغير فى تلك الناحية ، لم يكد ضوءه الضئيل يصل
إلى الأرض حتى ارتفعت يد سوداء من قلب الظلمات وما زالت
ترتفع إلى أعلا حتى أمسكت بالنجم الصغير ، وأطبقت عليه
بأصابعها فى قسوة ، فجأ نوره وردد الفضاء أنينه الخافت الضعيف
ثم هوى النجم كقطعة من الفحم الأسود .. وبدأت منذ ذلك الحين
نجوم أخرى غيره تطلع وتسطع من جديد ، فتتير أنحاء من
الأرض ، ويد الظلمات ما تنفك ترتفع إلى السماء تدور فيها هنا
وهناك تلاحق النجوم وتطبق عليها .. لقد هوت نجوم كثيرة
لا حصر لها ولا عد ، وضرجت الأرض بدماء كثيرة ، ومع ذلك

فلم تشأ الأقدار أن تتدخل لتضع حداً لهذا الصراع المحتدم بين
الظلام ، والنور ..

وفي أقصى الشرق بدأ القمر يطلع على الوجود ، تحف به
وتمضى في ركابه ، عناصر الخير والنور ، وفي ذات الوقت بدأ
الظلام يزحف على الأرض من ناحية الغرب ومن وراءه الشيطان ..
وصاح صائح الخير من أقصى الشرق « أيتها الظلمات ، إرزمي
مكانك ... »

فصاح الشيطان : « إن من حق أن أتحرك ! .. »

— قلت الزم مكانك أيها الشيطان .

— يجب أن أنشد مجالا أكثر سعة وفسحة ..

— ما الذي جد في الأمور ، حتى تتطلع إلى الأرض جديدة ؟

— يسير في ركابي إنسان بغير قلب .

وفزع النور مما تضمنته كلمات الشيطان ، فقال صائحا في عجب ..

— ماذا تقول أيها الشيطان ! .. ؟

— معي إنسان بغير قلب ، وامرأة تحبه ، ومعى أيضاً قلب

كبير لن يكون للحياة أن تهب عليه بشيء غير الضعة والحقارة -

إن من حق أن أنشد مجالا أكثر سعة ..

واهتز النور مما تضمنته كلمات الشيطان من معنى رهيب ، ومثد

ذلك الحين لم تعد المعركة صراعا بين النور والظلام، بقدر ما أصبحت بين الخير والشر ..

وفي الناحية التي امتدت عليها ظلال الهرم، إستيقظت الملكة، فوجدت نفسها ملقاة على الرمال ورأت « مري » والملك راقيدين على مقربة منها - فنهضت وسعت إلى حبيبها تتأمل وجهه الحالم الجميل، وراحت تهزه في رفق، وهي تناديه، « مري .. مري .. مري .. قم يا حبيبي فقد بعثنا من جديد .. » وما زالت تهزه وتناديه، حتى استيقظ واستوى جالسا يحيل الطرف حوله، وراح يتأمل وجهها ويطيل التأمل فيه، ثم سأها « أين أنا .. ؟ »

قالت : لقد رددنا إلى الحياة يا مري ..

قال : الحياة مرة أخرى .. لماذا .. ؟ من تكونين !

قالت : أنا نقر تيتي يا مري، هل نسيت ؟

ومسح الفتى عينييه بيده ومضى يتفرس في وجهها، وعاد يسأها وهو يطوف ببصره أنحاء الصحراء .. « ما هذا المكان .. ؟ ! »

قالت : هنا القمر والرمال يا حبيبي، عالم الحب والشعر والجمال قال : لا أفهم ما تقولين .

وبدا الملكة كأن الفتى لما يسترد كل وعيه - فأمسكت بذراعه وراحت تهزه وتقول له - « لقد بعثنا يا مري، بعثنا لكي أحبك

وتجبنى حبا جديداً . هذا ما قضت به الآلهة . . . »

فقال : لا أفهم شيئاً !

قالت : آه مـى ، أنظر هذا الفضاء الذى يمتد أمام بصرك ألا تكشف الآن فى غمرة الحب وأنت إلى جوارى هذه الأسرار التى كنت تسكتشفها فى الماضى ، مرى ألا تتمثل الوجود الآن - كما كنت تفعل فى - ، وفيك . وفى هذا القمر . . أألسـت تشعر أن العالم بأسره يتمثل فى هذه الرمال التى خلت من الأحياء ، فليس يتنفس عليها إلا أنا وأنت ، والحب - مرى هذا عالمك قد ارتد اليك ، عالم الحب والسحر والإلهام .

وهز الفتى رأسه كلما خوذ ، وبدأ يبتعد عنها ، فسعت وهى حيرى ورءه ، وسمعتة وهو يسائل نفسه ، حين وقعت نظراته على الهرم الأكبر .

— « ما هذا ؟ ! » —

فقالت له — هذا هرم خوفو العظيم يا مرى ، لقد أقامه فى العصور الغابرة حين كانت الإنسانية تحبو حبوا بطيئاً فى تقدمها ومعارفها - فجاء كالمعجزة لا يملك كل من يراها ، إلا أن يقر بعظمة مبدعها لقد كان خوفو مبدعاً وعبقرياً ، كما كنت أنت يا مرى . . .

ونهض الملك خوفو على صوتها وقال كأنه يحلم « إبتعدى
يا ملائكة القبور .. إبتعدى لا تتحدثى عن هرمى بعد اليوم .. هذا
الحديث الذى أنكره أوزيريس ... إبتعدى لا تتحدثى عنه .. »
ومضى الملك يدور بنظراته فى أنحاء المسكان وحين وقعت عيناه
على الملكة والفقى المثال ، سألهما « من تكونان ؟ »
فقالت الملكة — ألا تذكر أيها الملك أن أوزيريس قد قضى
ببعثنا جميعا ..

فقال — أوزيريس .. ! لقد تذكرت ، فهذه هى الحياة التى
وعدتى بها ، ولكن هل بعث معى جندى ورجالى ، وأين الكهنة
لينلوا الشعب على مبلغ قرابتي من الآلهة ، إن الحياة لا تستقيم
بغير كهنة ، أين كل هؤلاء ... لابد أنهم فى مكان قريب فليس لهم
أن يدنوا من سليل الآلهة ، سأبحث عنهم فى أنحاء هذا المسكان .
ومضى الملك يطوف فى بعض أنحاء الصحراء ، وسعت الملكة
إلى حيث كان مرى واقفا إلى جانب صخرة كبيرة من صخور الهرم
فقالت له « تعالى يامرى نجلس معا على هذه الصخرة .. »
فقال — « أحسن البرد يكاد يفرى عظامى .. »

قالت — تعالى فاجلس بجوارى وسوف تستشعر الدفء
والأمن معا ...

قال — لاشئ يمكن أن يبعث الدفء ، إلى قلبي ..

قالت — الحب ، يامرى !..

فقاطعها الفتى المثال فى حنق وضيق ، « إننى لأفهمك ، كلماتك لاتحمل الى معنى ، إننى أحس كأن جليدا متراكما من أجيال سحيقة يملأ جوانب نفسى » ثم تركها ومضى وهو يقول « لاشئ يمكن أن يبعث الدفء إلى قلبي .. » وجلست الملكة على الصخرة الكبيرة تتأمله وهو يبتعد عنها ، وأحسست بأن أعاصير مظلمة وأفكارا سوداء قد بدأت تعصف بآمالها وحبها .. وفيما كانت جالسة ، والحيرة والشك والدهشة تهب عليها من سلوك هذا الفتى وحديثه أقبل إليها الملك وقال لها : « إننى لم أعثر على أحد منهم ، إننى لا أدرى كيف تستقيم حياتى بغير جند وغير كهنة !.. وأنى أسائل نفسى أيضا ، لماذا أقمت هذا الهرم ، ولأى سبب سخرت الأمة كلها فى بنائه عشرات السنين !.. »

فقالت الملكة فى دهشة : ألا تعرف لماذا أقمت هذا الهرم ؟

قال : كلا ..

قالت : هل نسيت المجد والخلود والعظمة التى كنت تتحدث بها إلى أوزيريس .

قال : المجد والعظمة والخلود ، ماذا تعنين ؟! إننى مازلت

بعيدا عن فهم الغرض الذى أقمت له هذا الهرم .

قالت : لقد أقمته ، لتدل على عظمتك ومجديك ولكي تنال به الخلود .

قال : آه إننى لا أفهمك ... كلماتك لا تأتى إلى عقلى على معنى من معانى الكلمات ... !

وفيما كنا يتحدثان عاد مرى وقال يحدثهما « ألا تحسان الضيق فى هذا المكان »

فقال له الملك : أجل ، إن نسيمه يكاد يزهب أنفاسى ، دعنا نبتأى عنه ، هيا أيها الفقى .

وأخذنه من يده ، ومضى به على الطريق المنحدر إلى المدينة ونهضت الملكة وسارت خلفهما وصاحت بهما « هذا المكان يضايقكما ... ! كيف يحدث ذلك ، مرى هذه هى الرمال ، وهذا هو القمر مرتع حبنا الخالد ، وأنت أى خوف ، هذا هرمك ، وهذه نسائم مجديك ، ماذا يضايقكما فى هذا المكان ... ! » ولم يكن فى وسع أى منهما أن يفهم تلك الكلمات التى قرنت الملكة إسمه بها — ومازالوا ينحدرون حتى وقفوا أمام فندق (مينهاوس) وبهرتهم الأنوار التى كانت تتلألأ فى المكان — فتوقفوا أمام الباب يتأملونه فى دهشة ، ومالبث الفضاء من حولهم أن امتلأ بأصوات موسيقية

جميلة . وبدأت ردهة الفندق تموج بالراقصين والراقصات ، فقال خوفو « ما هذا .. ! وأى معبود جديد أقيم له هذا المعبد ، وما هذه الصلاة الجديدة التي يتقدم البشر بها اليوم إلى الآلهة ، إن معابدنا لم تشهد صلاة كهذه الصلاة روعة وبهاء ، دعونا نمضى إلى هذا المعبد لنقدم مع القوم ، صلواتنا إلى هذا المعبود ، ونرى هذه الأذرع البضة الرقيقة ، وأمسكت الملكة بذراع مري وقالت « هيا يا مري لنرقص معاً مع القوم لهذا المعبود .. » ولكن الفتى لم يتحرك خطوة واحدة ، وظل ينظر كالمشده إلى المكان ، ثم هز رأسه وقال « هذه الأصوات تبعث السأم إلى النفس .. »

فقالت الملكة في عجب : ماذا تقول يا مري عن هذه الموسيقى .. ! قال : إن أصواتها تسرى كالآلَم في جسدى ، هيا نبعد عن هذا المكان ، إن هذه الأصوات تؤذيني ، لقد أصابني منها دوار أليم ، رأسى يكاد ينفجر .

وبدأ الآلَم يرسم في ملامح الفتى وعلى وجهه فقالت الملكة : « تعال يا مري ، تعال نجلس على هذا السور ، انك متعب لقد أثر البعث فيك .. تعال يا حييبي » وأخذته من يده وتركها الملك واقفاً وحده يتأمل الراقصين والراقصات ، وعاد مرة أخرى يصعدان على الطريق الذاهب إلى الصحراء ، وفي منتصف الطريق ، قال

هرى ، أريد أن أجلس ففضت به الملكة حيث جلسا معاً على
السور الحجرى القائم على جانبي الطريق ، قال مرى : لقد بدأت
أستشعر الراحة بعد أن تلاشت هذه الأصوات من سمعى .
فقالت الملكة : هل نسيت الموسيقى يا مرى ، هل نسيت ، أنك
كنت حين تتحدث الى عنها ، تقول لى أنها غداء القلوب ونجوى
الأرواح .

فقال : لا أدرى لماذا قلت ذلك ، إن كنت قد قلته . !
وفيما كانا يتحدثان بهذا الحديث ، وصلت اليهما أصوات جلبة
وضوضاء ، وطرق سمعهما صوت الملك وهو يصيح « سترون أيها
الأوغاد ، كيف يحل بكم عذابي . » وبعد لحظة أقبل اليهما وعلى
وجهه وملابسه آثار عراك عنيف ، فسأله الملكة « ماذا حدث ؟ »
قال : « .. لقد طردنى النوبيون حين حاولت دخول المعبد ، ترى
ماذا أصاب الوادى ، هل أصبح الأمر فيه لملوك النوبة . ! »
قالت الملكة : من يدري أيها الملك ، لقد شهدت أشياء غريبة
منذ تنسمت نسيم هذه الحياة ، من يدري . !

وجلسوا ثلاثتهم على السور الحجرى ، وبدأ النسيم يهب عليهم
محملاً بالبرد والصقيع ، وظلت أنوار الفندق المتألثة تتلاشى من
أمامهم شيئاً فشيئاً ، حتى أطبقت عليهم الظلمات من كل جانب .

وبعد لحظة بدأت السماء تتلبد أمامهم بالسحب السود ، ثم مالبت
أن عصفت من حولهم عواصف كثيرة مدمرة ، ولمع البرق
وصوت الرعد ، فبدأوا يتطلعون الى وجوه بعضهم البعض في
خوف وفزع ، وهمست الملكة في آذان رفيقها .

« اتجهوا بأبصاركم وقلوبكم الى السماء . . . فليس على الأرض
مكان نلتمس عليه النجاة . . » فاستجابوا لها واتجهوا جميعاً بأبصارهم
الى السماء ، يلتمسون من تلك القوى التي تحيا فيها أسباب نجاتهم ،
ولكن ظلمات كثيفة وقفت أمام عيونهم ، فحالت بينها وبين
الوصول الى السماء ، وظلت الدنيا من حولهم تقصف وترعد
وتبرق في كل مكان .

« وهمس الملك — إن أصواتنا وأبصارنا لن تبلغ السماء . إن
أبصارنا لتضل في هذه الظلمات ، وإن أصواتنا لتضيع في
هذا الرعد وقال مرى : ماذا نصنع ، هل سنظل هنا ، ونحن نكاد
نهلك من الفزع والبرد والجوع .

قالت الملكة . . من الخير أن ننتظر بعض الوقت ، حتى تنقشع
الظلمات وتفتح أبواب السماء ، فليس من الواجب أن نلتمس
وسائل الحياة والنجاة عن طريق غير طريق الآلهة والسماء .
وضاق مرى بهذا الحديث . فهم واقفا على قدميه وصاح

«... السماء والآلهة ألا ترين أن أبواب السماء قد أغلقت دوننا ،
وأن آذان الآلهة قد صمت عن سماع أصواتنا ، ماذا تنتظران هنا ، إنصتا
ألا تسمعان ... إنصتا معي ... ها أنذا أسمع أصواتا كثيرة
تساديقي من كل مكان وتقول « أن هلم فلدى الدفء والأمن
والحياة ... » إننى أرى أيديا كثيرة تلوح لى من بعيد وتصيح بى
أن عجل ، قبل فوات الأوان .. » لن أنتظر دقيقة واحدة ، ولن
أسلم نفسى للفرع والموت ، وأنا أرى آلامى كل أسباب النجاة .
قالت الملكة - ولكننا لا نرى شيئا مما تراه يامرى ،
ولا نستمع إلى شيء مما تتحدث عنه .
قال : لا ترين . ! ولا تسمعين . ! تعالى بجوارى - فسترين
وتسمعين كل شيء .

ومضت الملكة فوقفت بجانبه ، وأشار الفتى بيده إلى مكان
مجهول وقال « أنظرى ... »
قالت - لا أرى شيئا .

قال - ألا ترين هذا النور الأحمر اللامع ، ألا ترين هذه
الخمرة التى تسكب من غير حساب ، ألا تسمعين إلى هذه الأصوات
التي تهتز عليها أجسادنا ...

قالت : إنك تصور أشياء لا وجود لها . لقد عادت إليك
طبيعة الفنان ، تعال يا مري واجلس فمعا قليل تنقشع الظلمات .

قال : كلا ، كلا ، لم أعد أطيق الظلمات .

قالت : إصبر يا « مري » فإن الصبر بعض شيم الأبرار .

قال : كلا ، كلا

وبدأ الفتي يتحرك فتشبثت به الملكة وقالت « إنتظر يا مري
فمعا قليل تنفذ أبصارنا إلى السماء ... »

قال : لن أستطيع الانتظار لن أستطيع ، إن في وسعي أن
أتمس وسائل للحياة والنور والدفء من أكثر من طريق ، مادام
طريق السماء قد أغلق دوني ..

وأفلت من يد الملكة وانطلق يعدو إلى المدينة بأقصى
ما يستطيع من جهد ..

وفي قلب الظلمات قال « ست » إله الشر يحدث الشيطان « من
هذا الفتي الذي استمع إلى صوتك .. وبصر بالأنوار التي لوحث
له بها ... »

قال الشيطان : « من لا قلب له .. إنه لم يعد يؤمن بما تأتي
به السماء »

قال إله الشر : « ولكن ما بال هذه المرأة ، وهذا الرجل ،

لا يلقيان السمع لصوتك الجميل » قال « أن أبصارهما ما زالت
معلقة بالسما . »

قال إله الشر : « وإلى أين تمضى الآن »

قال الشيطان : سأكون في انتظار هذا الفتى في قلب المدينة . »

قال إله الشر : « هل ستترك هذين المخلوقين .. »

قال الشيطان : « سأعود إليهما بعد لحظة ، ولكن إياك أن
تدع الظلمات تتحرك من أمامهما ، لا تدع أصواتهما وأنظارهما
تنفذ الى السماء »

وانطلق الشيطان الى قلب المدينة ..

وعادت العواصف تعصف حول الملوك والملكات ، والسحب
السوداء لا يتوقف برقها ولا يسكت رعداها ، فصاح الملك وهو يهتز
« لم يعد ثمة أمل في النجاة .. »

فقالت الملكة ونظراتها معلقة بالفضاء :

— لا أحب أن نفقد إيماننا بما في السماء .

ظل الضوء الأحمر الذى يلمع فى قلب المدينة يجذب «مرى»
إليه وما زال يسعى حتى وقف أمام مكان تلاًلاً عليه الأضواء
كما لا تتلاًلاً على أى مكان آخر فى المدينة ، وأحس الفتى براحة
الشهوة ونسيمها يلفحان جسده ، كان كل شيء يغريه ويناديه للسعى
إلى داخله ، إن به ظمأً شديداً إلى الخمر ، وإن جسده ليصغى فى
نشوة إلى ما ينبعث منه ، من أصوات وهمس ، وفيما كان الفتى
يدبر فى عقله طريق المضى الى داخل المكان ، وقف صاحبه يرقبه
من بعيد ، ويتأمل ما ينعكس على وجهه من تعبيرات ، ويصغى
إلى ما يتردد فى جسده من أصداء ، وحين اطمأن الرجل إلى أن
الفتى يعبر ويردد أصداء وملاح تنسجم مع لحن المكان ورسمه
شاع فى نفسه السرور وولى ظهره للفتى ثم بدأ ينأى عنه... ولو
أن امرء تأمل فى عيني هذا الرجل لرأى وراء هذه النظرات
الهادئة عيوناً تشع باللهب ، ولرأى وراء هذه الابتسامة الودیعة ،
إبتسامة أخرى كريهة ، قد ملئت سخرية وحقدًا ...

سعى «مرى» إلى الداخل ، وحين احتوته أضواء المكان

وأجراؤه ، وما يترد فيه من أصوات وقف مبهورا يتأمل
المناظر الكشيرة التي تبدت أمامه - رأى في أقصى المكان أضواء
مختلفة الألوان ، إنعكست على فتيات كثيرات يرقصن عاريات كما
ولدتهم أمهاتهن ، رقصا غريبا مثيرا ... ورأى النظرات الجشعة
الصادية قد سلطت عليهن من هنا وهناك .. واستمع إلى أصوات
كثيرة ترجمهن من كل مكان بألفاظ مليئة بالفحش والفجور ،
والموسيقى تعزف وتدوى في المكان فتصب على النار المشتعلة في النفوس
- زيتا جديدا - لتزداد التهابا واشتعالا ، ويذمنا كان «مرى» يتأمل
المكان في دهشة إنحسرت الأضواء المخبئة الألوان عن الفتيات
ثم أطفئت أنوار المكان إلا من ضوء أحمر ضئيل ... وخذت
أصوات الموسيقى التي كانت تدوى في أرجائه ، وبدأ الفتيات
يرقصن رقصة جديدة في الظلمات ..

في هذه اللحظة بدأ دخان أسود كثيف يتصاعد فوق
المكان ، لأن قلوبا كثيرة قد بدأت تحترق في لهيب الشهوة التي
أشاعها رقصة الفتيات مع الظلمات في أجساد الناس - وجأة
أطفئت الأنوار مرة ثانية ، فانطلق الفتيات هاربات ، ثم أسدل
الستار فدوت القاعة بأصوات المخمورين وصيحات المنتشين ..
ثم وقف صاحب الحان فرفع يده إلى أعلا يدعو القوم إلى

السكوت فأطبق صمته رهيب على القاعة لم يكن يعكزة إلا أزيز هذه الشهوات التي تغلى في أجساد القوم. وبدأ الرجل يتكلم فقال : « إنكم تعرفون أيها السادة أن زعيمنا قد قتل أمس وهو يناضل نضال الأبطال عن مبادئنا القويمة ، لقد صرخته قوى الخير التي تحاربنا في كل مكان ، كما استشهد كل زعيم لنا قبله على جبل المشنقة العتيده . فلنبعث إليه من مكاننا هذا بأمانينا الطيبة ولنسأل قوى الشر من الدار الآخرة أن تلاحظه برعايتها وعطفها ، ولا شك أنكم تعلمون أن فتاة المرقص الأولى جد حزينه عليه وما أحوجها إلى ما يسرى عنها حزنها وأسفها . إننا جميعا نحشى على جسدها الغض ونحشى على عينيها الساحرتين من الدموع ، وهى تأبى أن تقضى الليل إلا فى أحضان زعيم ، دعونا أيها السادة قبل أن ينفض جمعنا ، نختر لها هذا الزعيم ... ثم التفت الرجل إلى « مرى » فوجده واقفا وحده بعيدا عن القوم ، فناداه وقال له : لماذا تقف هكذا أيها الفتى ، تقدم تعال . . هاهنا مكان لك ...

ثم أشار إلى مقعد خال بين مقاعد القوم - فتقدم الفتى إليه وأخذ مكانه بينهم وأقبلت فتاة المرقص فى تلك اللحظة تنثى عجباً وتميس دلالة . فوقففت إلى جانب صاحب الحان . تنقل بصرها على وجوه القوم

وعاد صاحب الحان فقال « فلنختر أيها الرفاق ، هذا الزعيم »
وارتفعت أصوات كثيرة من هنا وهناك تتصايح وتقول « أنا ..
أنا .. أنا .. »

فقال الرجل في صوت هائىء ما كر .. « إن عرش الشر لم
يكن هكذا أيها الرفاق ، سهل المرتقى يسير المنال ، إن صولجان الشر
لا تحمله إلا الأيدي القوية ، وإن تاجه لتتوء به أعنى الرقاب ،
فحذار ثم حذار ... »

فقال الفتاة - لنى أولا ، أكثرهم مالا ...
فانطلق القوم ، يخرجون مافى جيوبهم من مال ويتصايحون به ،
وظل مرى ساكنا لا يتحرك ، فأتجه إليه صاحب الحان وقال وهو
يبتسم له ابتسامة صفراء « لماذا لا تخرج مافى جيبتك أيها الفتى »
فقال مرى : ليس معى شىء من المال

فقال الرجل وهو يمس يده فى جيبيه : « آه ياللفتى الماكر » ثم
أخرج يده ورفعها أمام القوم وهو يحمل من الأموال ما لا
طاقة لهم بحمله ثم قال « أنظروا ، كم يحمل من المال ، ياللفتى الماكر
ما أقدره على حمل الصولجان ... »

وتصايحت الأصوات من كل جانب تقول : « وأنى له
بكل هذا ! ... ! »

فقال صاحب الحان — آه أيها القوم ، هل نسيتم أنه ليس من مبادئنا أن نسان من أين يأتي المال ... فلنتوجه زعيما .

فقال الفتاة — إنتظر ، إنتظر ، دعني أنظر حسنه وشبابه .
وسعت إليه ، ومضت تنفرس في وجهه ، والفتى ذاهل ، لا يدري كيف يتصرف ، وضحكت ضحكة ماجنة وقالت « إن حسنه وشبابه ليرفعانه في دولتنا إلى أعلا مكان ، فلنشرب نخبه ولنتوجه زعيما . »

فنادى أحد الاشرار من أقصى القاعة — قبل أن يعمل عملا . !
وصاح آخر : قبل أن يغزو حصنا ... !
وقال ثالث : إن هذا ليس من دستور الفجار ..
فقال صاحب الحان :

« يجب أن يعمل عملا .. »

وأن يغزو حصنا ،

وأن يضم إلى أرضنا أرضا .

ويضيف إلى فنونا فنا

لكي يصبح لنا رائدا ،

ويغدو زعيما ... »

فقال الفتاة ويدها على ذراع الفتى « إنه سيفعل إنكم تعلمون

أننى أحتفظ بالتاج ، والصولجان فى مخدعى ، ولن أسلمها إليه قبل أن يفعل كل هذا ... »

فتصايحت الأصوات - إقسمى باسم الشيطان الذى لا يرحم ولا يغفر ، أنك لن تسلميها إليه قبل أن يعمل عملا ، فقالت - أقسم باسم الشيطان !

ثم أخذته المرأة بين ذراعيها ، ودوت القاعة بالهتاف والتصفيق وبعد لحظة إرغض الحشد الذى اجتمع على الشر ، وافترق على الشر . وفى مخدع المرأة ، حيث تاج الشر وصولجانه ، إستوت المرأة على فراشها ، وقد تجردت إلا من غلالة رقيقة ، تغرى بالجسد أكثر مما ترهده فيه ، والمصباح ذو الضوء الأحمر يهتز فى أعلا المكان ، والفتى ساجد أمام فراشها .

قالت : محال ، محال ، لقد أقسمت للتوم ألا أسلمها إليك قبل أن تعمل عملا .

قال وهو ينتفض : ماذا تريدن ، أننى طوع أمرى ، إن فى صدرى قلبا لا يرحم ولا يلين ، ماذا تأمرين ...

فنهضت المرأة من فراشها . وقد استيقظت فى أعماقها ربات الانتقام ، يطلبن الرى والاشباع ، وعبر خيالها شبح امرأة ، فقالت : إنهض أيها الفتى ، تعال فاجلس إلى جوارى ، ولكن

حذار أن تمتد يدك إلى التاج والصولجان فقد أقسمت ألا أسلمها
إليك ، حتى تعمل عملاً ، إصنع إلى جيداً ، توجد امرأة أقحمت
نفسها في ماضى ، إنتصرت على ، وفازت بالرجل الذى أحببته ،
تركت في قلبي جرحاً دائماً ، ما يزال ينزف إلى اليوم بالحقد والحسد
آه ، إن الفراغ الذى تركه في قلبي حب هذا الرجل ، كان فيسيحاً
كما لا يمكن أن تتصور فسحة الفراغ ، لقد أردت أن أملاً هذا
الفراغ ، فضيت أفنح قلبي لكل طارق ، وأهب جسدى لكل
إنسان ، واتهميت إلى هذا الحشد من الرجال الذين يحبوننى ،
ويسجدون عند أقدامى . ولكن لما يملأ الفراغ - لقد سعدت هى
برجل واحد ، وشقيمت أنا بالعديد من الرجال .

ثم ذرفت المرأة دموعاً كبيرة .

فنهض الفتى إليها وقال : بالله لا تبك . . أما زالت هذه المرأة
على قيد الحياة .

قالت : أجل ، إن حياتها تستمد بقاءها من شقوتى وآلامى .

فقال الفتى : يجب أن أقتلها ، يجب أن أقتلها . إن دموعه من

عينيك الساحرتين لا تقدر بنفس أو بمال .

وكفكفت المرأة دموعها ، وأخرجت من تحت وسادتها سكيناً

صغيراً ألمع في عين الفتى ، كما يلمع البرق ، وقالت : لقد إدخرت هذا لأقتلها به في يوم ..

فقال : سأتولى ذلك عنك ..

فقالت : لا تأخذك بها رحمة .. ؟

قال : قلبي لا يصغى إلى الرحمة .

قالت : ويجب ألا يزعجك بكاء أطفالها ..

قال : إن قلبي لا يصغى إلى شيء ..

قالت : إقتلها معا ، هي وهو ..

قال : سأفعل ما تأمرين ، دعيني ألثم ثغرك ..

قالت متأبئة : معذرة ، فقد أقسمت ، عندما تعود سأسلمك

كل شيء ...

قال : حسنا ، ولكنك لم تدلني على الطريق إليها ..

فقالت : هذا الرجل سيمضى بك إلى دارها ...

وأشارت إلى الباب فرأى « مري » صاحب الحان واقفا ينتظره

ويلوح له بيديه قائلاً : أن أقبل أن أقبل .. سأمضى بك إليها

وقالت المرأة : .. لن تغفو عيني قبل أن تؤوب إلى اللقاء .

وخرج الفتى في صحبة الشيطان ...

وقييل الفجر آب الفتى إليها يحمل في يده السكين المضرح

بالدماء وقال وهو يلهث - « أين التساج وأين الصولجان ... ؟ »
فنهضت المرأة تلمع في عينيها روح الشر والبغضاء وقالت :
- حدثني ماذا فعلت ؟ هل بكيت عند أقدامك ، كم سكبت من
دموع ، هل توسلت إليك وأعرضت عنها ، ماذا قالت وهي
تلفظ نفسها الأخير ..

قال الفتى - لا تتحدثني إلى فيما فات ، تعالى إلى
قالت وهي تبتعد عنه : يجب أن تحدثني ، أولا ، أريد أن
أشبع ظمأ الانتقام الذي تعذب به جسدي زمنا طويلا ، هل بكيت
هل تمدت ، كيف قضيت عليها ، وهل قضيت عليه أيضا ... ؟
قال الفتى : عندما وقفت أطل على مخدعها وجدتها تصلى ،
فقال لي هذا الرجل الذي بعثته معي ... ، ليس في وسعي أن أنفذ
بك إلى هذه المرأة ، وهي بين يدي ربها .

قالت المرأة : وقد انتظرت حتى فرغت من صلاتها ... ؟

قال : كلا ، إنها لم تفرغ من صلاتها .

قالت : فماذا فعلت إذن ، تكلم ، دماء من هذه ... ؟

قال : دم الرجل ، دم زوجها .

قالت : قتلته ... ؟ !

قال : أجل ...

قالت : ولم تسمع بكاءها ..

قال : كلا ..

قالت : ولم تتعذب ..

قال : كلا .. كانت تقول « يارب .. يارب .. عندما غادرت

الدار .. »

فنهضت المرأة واقفة وهي تبكي : أيها الشقي ، أغرب عن وجهي أغرب عن وجهي . لا أريد أن أراك ، كيف تقتله وتدعها كيف تقتله .. ؟! ألم يحدثك قلبك بأنى أحبيته فى يوم مضى ، ألم تأخذك شفقة بهذا القلب الذى نبض يوما بحبي ، فتشرب فيه سكينك أيها القاتل .. أيها القاتل .

ثم أمسكت بعنقه تود لو تقتله وعلى مر جل الغضب فى صدر الفتى وتحركت روح الشر فى جسده . فرفع السكين المضرج بالدماء وبينما كان يهوى عليها ، شعر بيد أخرى تمسك بيده ، وحين التفت إلى الخلف ، رأى صاحب الحان وهو يحدثه فى صوت ساخر : « إذا قضيت عليها .. فإذا يبقى لى .. إنها أئمن من كل مغريات السماء ، تعال أيها الفتى ولا تتعرض لها بشر . وسوف أستعطفها عليك فى يوم قريب .. » ثم همس فى أذنه « تعال إن لى لك عذراء تفوقها فتنة وجمالا ... تعال »

وأخذه من يده ومضى به إلى الخارج ..

طال مقام الملك والملكة على السور الحجرى ، والظلمات
ما زالت ماثلة أمامها لا تتحرك ولا تريم ، حتى أشجرهما التطلع إلى
السماء ، وحتى فقدوا الأمل فيما قد يأتى إليهما منها وما لبث الملك أن
قال : تعالى ممضى ثانية إلى الصحراء . فنهضت الملكة فى سكون
وسارا معاً على الطريق ، واليأس والحيرة يفعلان فعلهما فى
نفسيهما ، حتى أشرفا على الهرم الأكبر ، فتوقف الملك لحظة
وراح يتأمله ويقول محدثاً نفسه « لماذا أقمت هذا الهرم ، إنه
لأمر بالغ الغرابة ، ألا أعرف أنا الذى سخرت الأمة فى بنائه
السبب الذى أقمته من أجله ، إنها حماقة كبرى أن يكون هذا الهرم
قد أقيم لغير غرض ، حماقة منى ومن الناس . لماذا يبدو هذا
العمل تافهاً أسمى الآن . . أ يكون ذلك لأنى لا أعرف الغاية
منه . . إن ذلك يؤلمنى ويحز فى نفسى — إنه لا يستطيع أن يهد
لى مكاناً للعيش والحياة . وها أنذا لا أجد مكاناً أهجع فيه أو
طعاماً أسد به رمقى . . أنا الذى أقمت كل هذا البناء . !

وقالت الملكة — ترى أين ذهب « مري » ترى هل يعود؟!
لقد أصبح هذا الفتى غريب الأطوار .

وجلسا على صخرة ناعمة من صخور الهرم .. وقالت الملكة :
أيها الملك لقد هدى التعب والترقب واليأس ..! بودى لو استطعت
أن أغفو لحظة على هذه الصخرة .

وتمددت الملكة على الصخرة ، وجلس الملك غير بعيد منها يرقبها
ينظراته في عطف وأشفاق ... ومرت الوقت في سرعة والمملك
جالس في مكانه وهو في أوج صحوه ويقظته ، كأنما يخشى النوم أن
يبدنو منه ، وبدأ الفجر من وراء الأفق يشرق على الوجود وسمع
الملك صوتا غريبا يردده الفضاء من حوله ، فنهض على قدميه
يشابه الفرعونية القصيرة كأنما يتهاى لحوض معركة من معارك
الحروب ... وأقبلت سيارة كبيرة فوقفت على بعد خطوات منه
وهبطت منها فتاة مشرقة الطلعة ترتدى ثوبا أبيض من الحرير
ما أن مسه النسيم حتى بدأ يتطاير حولها ، وبدأت بطلعتها وثيابها
أشبه ما تكون بهذا النور الهادي الجميل الذي بدأت الحياة تشرق
فيه مع مطلع الفجر . وحين وقع بصرها على الملك واقفا أمامها
يشابه الغريبة . إرتدت خطوات إلى الوراء . وقالت في عجب :
هن تكون ...؟! ...

وخطا الملك إليها خطوات قليلة . وراح يتفرس في وجهها ويتأمل
محاسنها ، وعادت الفتاة تكرر سؤالها في صوت حالم وتقول له :
« من تكون . . ؟ »

فقال الملك — « أنا الملك خوفو . . . »

وخرجت من فم الفتاة آهة خفيفة ، وقالت وهي
ترفع بصرها إلى السماء « شكرا يا إلهي ، شكرا يا إلهي فقد آن أن أشهد
حلي حقيقة واقعة ، لقد عشت حياتي كلها في الأحلام ، وكنت
دائما عندما أفتح عيني على الحياة أجد الحقيقة أمامي بكل قسوتها ،
ولكن هانذا أفتح عيني الآن على حلي ، وقد تحقق . . »

وأمسكت بيد الملك وتابعت حديثها . « لقد أمسكت بأحلامي
بين يدي ، إنها لن تفلت مني بعد اليوم — الملك خوفو . . يا الله لقد
رأيتك قبل اليوم بثيابك هذه وملاحك هذه ، رأيتك ، هذا أمر
لا ريب فيه . . ؟ ! »

فقال الملك — رأيتني قبل الآن ، في أي مكان أيتها الفتاة
أرجو ألا يكون ذلك في محكمة أوزيريس . .

فقالت الفتاة : « أوزيريس » رب العدالة ، أه ما أبدع هذه
الأساطير ، إنني سعيدة بلقائك أيها الملك العظيم . . .

قال الملك - ولكن من تكونين ..؟ هل أقبلت معنا من الأرض الثانية ..؟

قالت : إن إسمى « عائدة » ألم تسمع عن إسم كهذا إن له قصة فرعونية وموسيقى معبدية، إن يبقى يقع على مقربة من هذا المكان ، آه إن قلبي وعقلي يتجهان إلى هذا العالم القديم ، عالم الأهرام والأطلال ، يتجهان دائما إلى ذلك الزمن السحيق ، بكل علومه وآدابه وفلسفاته ، آه كم تمنيت ، لو عشت فيه .. إن كل شيء حولي يجذبني إلى هذا العالم الساحر - تراني أقبل كل يوم مع ضياء الفجر أتندم هنا نسيم الماضي المجيد ، أملاً قلبي وعقلي وخيالي بمعاني الخلود التي تهب جميلة فاتنة من هذه الأهرام والمعابد - والآن إكتملت الصورة الرائعة في عقلي وخيالي ، إذ رأيتك .. ووضعت يدي في يدك .. وسرت معك جنباً إلى جنب ، أيها الملك العظيم - وتوقفت الفتاة فجأة ثم سكنت .. فنظر إليها الملك وقال « تحدثي أيها الفتاة : لقد سرني سماع صوتك الجميل .. » ولكن الفتاة ظلت صامتة لا تلفظ بكلمة ، والملك ينظر إليها في عجب وهي مطرقة إلى الأرض ثم سحبت يدها من يده - وقالت وهي ترنو إليه بنظرات كثيرة أسيفة « معذرة ، لقد أسرفت في الخيال ، إن الإسراف آفة حياتي ، إن ذلك شأني في كل ما يعرض لي ، لقد عكرت عليك صفوه هدوئك ،

لقد ذهبت بعيدا مع الأحلام ، ذلك أننى فوجئت بمرآك ، واقفا
أمامى بهذه الشياى الفرعونية الجميلة ، وما زالت حديثه عهد بالنوم
والأحلام ، سرعان ما ردنى كل ذلك إلى أحلامى القديمة فلم أستطع
أن أميز الحقيقة من الحلم . هل ضايقتك .. ؟

فقال الملك - كلا .. كلا .. لقد سرنى أن أراك وأستمع إلى
صوتك ، هل يضيرك أن تتجول معا بين هذه الأطلال ...
فقال الفتاة - كلا .. لا يضيرنى البتة ، إننى سأحدثك عن
نفسى ، وسأحدثنى عن نفسك ، إن أردت ، إننى أعلم أنى أحلم
كسعادتى ، ولكن لا ضير فعما قليل تشرق الشمس ويذهب الصبح
يكل شىء ..

ومضيا جنباً إلى جنب ينقلان أقدامهما فى هدوء على الرمال
قالت الفتاة - إننى أحب هذا المكان ، وأهوى هذا الهرم
وأفئن به ، إننى أستشعر السعادة والغبطة حين أطل بنظرى عليه ،
من أى مكان ، ولكن حدثنى أنت أتخيه مثلى ، أفئن به ، إن
شبابك هذه التى ترتديها تنبى عن ذلك ، إنك تريد أن تعيش فى
ذلك الزمن السحيق ، تريد أن ترتد إليه مثلى ، إن مجد هذه الأهرام
يفتنك كما يفتننى ، إن العظمة تملأ جوانب نفسك ... إننى أعيش
وحيدة فى حياتى ، ليس لأن بيتى أفقر من الأهل والصحاب أو

لأن الحياة أقفرت من الأحياء ، ولكن لأن أفكارى ومثلى ،
تتردد فى نفسى ولا أستمع إلى صدى لها فى أى من النفوس ..
صدقنى إذا قلت لك أنه يستوى عندى الحياة والعدم . إننى أعيش
فى وحدة مفزعة ، وإن ملأ الناس الدنيا حولى فى كل مكان ،
كم هو خيف ومفزع أن يجد الإنسان أفكاره ومثله تحيا وحيدة
ومنعزلة ، لاتناجيه فى حياته نفس أخرى بمثل أفكاره ومثله ،
لاتعجب إذن ، إذا رأيتنى أترك هذا الزمن ، وأذهب فأحلم بإنسان
لا وجود له ، وبزمن قد طواه الفناء ، وأنت أيضا عندما تضع
عناك هذه الثياب الجميلة سنبدو فى نظرى ككل الناس .. لا تخلو
حياتهم قط من أشياء صغيرة وتافهة ، إننى نفسى لا أستطيع أن
أتحرر من هذه الصغائر ، التى تذهب بكل عظمة الإنسان وسموه
- هل تعرف لماذا أهوى هذا المكان ، إننى أجدنى فيه أقدر
ما أكون على تحرير نفسى من قيود هذه الصغائر ، إننى عندما
أجد نفسى هنا وحيدة ، أحيأ بفكرى وحده لا أستشعر بحاجات
الحياة ، ولا أخضع لمقاييس الأحياء ، هنا أحس بكل ما يمتلك الإنسان
من إمكانات السمو والرفعة .. ولكن ما أقصر هذه اللحظات ،
إنها توهمض فى عمر الزمن كما توهمض حياة العظيم فى أمة من الدهماء ،
آه متى أجد نفسا عظيمة تحررت من كل صغائر الحياة ، إننى

سأضع يدي في يدها وسامضى معها ، ولو ذهبت بي إلى الجحيم
والآن حدثني يا صديق ، أتعشق المجد . . .

فأجابها الملك الذى إنتزعت منه الآلهة كل الملكات التى يدرك
بها أمثال هذه الألفاظ وقال : أى مجد . . ! قالت : مجد الأعمال
الانسانية العظيمة ، مجد هذه الأهرامات مثلاً ، هل تفتنك فكرة
الخلود . أنظر ألا ترى هذه الفكرة وهى تطل علينا مع كل نظرة
ترمقنا بها هذه الأهرامات . عظيم أن يقف هذا الهرم هكذا
يتحدى الزمن على مر السنين والأجيال ...

وظل الملك يتأمل الفتاة وهى تتحدث عن هذه الاشياء ، فى
حيرة ودهشة . إنه لم يفهم شيئاً مما تقول . وبدأ له كأنها لا تريد
أن تفرغ من حديثها الغامض :

— . . . إنها تفتنك كما تفتننى . إنك مثلى تريد أن تفر من
تفاهة الحياة ، ولا تجد غير نسيم المجد والعظمة والخلود ، نسيماً
تحيا فيه أفكارك . إن هذه الأشياء تملأ جوانب نفسك كما تملأ جوانب
نفسى .. كلانا يضم جوارحه على معان ومثل واحدة

وضايق الملك أن تستأثر الفتاة بالحديث كله من دونه ، وإذا
كان حديثها ، لم يجد له مستقراً فى عقله . فأن فى وسعه أن
يتحدث إليها عما يعتمل فى نفسه من أحاسيس ووجدانات

فقال : أيتها الفتاة ... إننى لا أدرى كيف أفسر الشعور الذى طغى على قلبى منذ رأيتك . ولكنى أستطيع أن أقول إن مرآك قد ملأ نفسا حزينة بأنواع من الغبطة لا سبيل إلى وصفها . لقد كان قلبى غارقا من ليلة أمس فى أحزان بعيدة الغور . ولكنى الآن لا أحس إلا السرور ، هل تستطيعين أن تدلنى على سر هذا التحول الغريب ... ؟ !

قالت الفتاة فى غبطة : إن المعانى التى تملأ قلوبنا تتجاذب ..
قال الملك — أعتقد أنها ليست المعانى ، لابد وأن تكون
القلوب ، القلوب نفسها هى التى تتجاذب
قالت الفتاة — وهل يمكن أن تتجاذب القلوب بغير معان ..
قال الملك — لا أدرى .. لا أدرى !

قالت الفتاة — إنها المعانى .. يعجز زى .. فأن القلوب نفسها ليست إلا معانيا يمكن أن يفسر بها الإنسان ، بل الإنسانية بأسرها .
ثم ساد الصمت لحظة ، وكان ضوء الصبح ، قد بدأ يكشف
لهم بعض معالم الحياة ومظاهرها ، فنهضت الفتاة وقالت : يجب أن
أغادر المكان ، فليست أحب أن أظل هنا حتى تطلع الشمس ،
وتستيقظ الحياة ، لماذا لا تقبل معى ؟ .

— شكرآ ، شكرآ ، إننى سأبقى لحظة أخرى ..

— كما تشاء ، إنك تريد أن تتنسم المزيد مما يهب من هذا المكان
الساحر ، تريد أن تظل حيا في مجده وخلوده .. هل سنلتقى مرة
أخرى ، يامولاي ، أجل من الضروري أن نلتقى لنحلم حلماً آخر ،
إن الأحلام جميلة ، أليس كذلك ؟ ..
قال : نعم إنها جميلة .

قالت : فليكن لقاءنا القادم في المساء ، عندما تغفو الحياة ،
مرة أخرى في ضوء القمر ، على هذه الصخرة .
قال : حسناً ...

وشدت على يده ، وعيناها تلمعان ببريق جميل ، ثم قالت :
« إلى اللقاء » ..

ومضت بسرعة وهي تلوح له بيدها ، وتبدور إلى الخلف بين
لحظة وأخرى ، لتشرق عليه بوجهها الجميل وإبتسامتها العذبة ، ثم
صعدت إلى سيارتها ، ومضت تنحدر على الطريق ، حتى اختفت
عن نظريه .

وقف الملك لحظة ، يتأمل الطريق الذي اختفت عليه الفتاة ،
وقد أشرق في وجهه نور جديد ، ثم إنطلق يغنى وهو في طريقه إلى
الملكة النائمة ، وراح يهزها حتى استيقظت . وحين فتحت الملكة

عينيهما ، دهشت لما بدا لها على وجه الملك وأساريه من ملامح
وتعبيرات جديدة بهيجة .

فقالت : ماذا حدث ... !

قال : لا أدري ، انه أمر عظيم ، إنهضى فيني أحب أن أحدثك عنه
فسأله الملكة : أى أمر .. !

قال : لقد لقيت منذ لحظة فتاة جميلة ، مضت تتحدث إلى ،
لقد بعثت إلى إحساساً جديداً ، لقد كان مرآها مصدرراً لمتعات
كثيرة ، كانت تتحدث كشخص أفاق من حلم جميل ، عز عليه أن
يفتح عينيه فلا يراه ، فأغضضهما ثانية ، ومضى يحلم وهو يقظان .
قالت : متى لقيتها ..

قال : مع الفجر ، لقد حدثتني عن أشياء غريبة ، لم أستطع لها
فهماً .. ورغم ذلك فقد كان صوتها يهز أوتار قلبي ، كانت نظراتها
الحلمة تنفذ إلى أعماق نفسي ، فأحس أنني أحلم أنا الآخر معها ، ثم
قالت ، إن المعاني التي نضم عليها جوانحنا واحدة ، أنا وهى ، هل
رأيت شيئاً كهذا يحدث بهذه السرعة .

فقالت الملكة وهى تتنهد : هكذا يهب الحب أول ما يهب على
القلوب .

قال الملك : هل أنت على يقين ، من أن هذا هو الحب .

قالت : أجل .

فوقف الملك مزهواً وقال : الآن قد اهتديت ، إلى سر بعثى ،
الحب ، بالرحمة الآلهة التى جعلت بعث الخلق لهذا الأمر وحده ،
أنت الأخرى ، قد بعثت وصاحبك للحب أيضاً ، إن الحب هو أجمل
ما على الوجود ، لقد تمثلت فى هذه الفتاة الجميلة ، مرقئ الوحيد من
خضم الأحزان الكثيرة التى اصطلحت على ، واثرت فى وجهى
مذ خرجت إلى الوجود ، لا يعنينى الآن أن أرى هذا الهرم بخرق
أمامى فى تيه من التفاهة والجنون ، مادمت أرى فى وجه هذه الفتاة
وإبتسامتها ضياء الحب الأمل ، لقد تفجر من حبشها ، النور على
جوانب حياتى كلها ، تلك الحياة التى خيمت عليها ظلمات اليأس من
ليلة أمس .

فقالت الملكة : لقد أحببت أيها الملك ، فليس غير الحب
ما يستطيع أن يبدل هكذا ، حال الناس والأشياء ..

فقال الملك : ولكن هناك أشياء تبدو غريبة لى ، هذه المعانى
التي تملأ بها قلبها ، تبدو غريبة على ، إننى لا أفهمها .. فى حديثها
فجوات فارغة ، فكان يبدو لى غامضاً فى بعض الأحيان ..
فسألتها الملكة : ما الذى رأيته غامضاً فى حديثها ..

قال : تفتنها كلمات المجد ، والعظمة ، والخلود ، إنها لا تكف

عن ترديدها ، في حين أنها لا تحمل إلى عقلى معنى من المعانى ،
ألا يبدو ذلك غريباً !

قالت الملكة : تقول أنك لا تعرف معنى هذه الكلمات . !
قال الملك : أجل

قالت الملكة : وأنت ألصق الناس بها .

قال الملك : . . . ولكن لماذا تفنن بها الفتاة ، لماذا تضغنى في
إطار واحد مع أشياء لا أعرفها ، ولا يستقيم لها معنى في عقلى ،
لماذا تسرف في الإعجاب بها مع أنها لا تبعث إلى أثرا . . !

قالت الملكة : لقد أحبتك ، هذه الفتاة ، ماذا يعنيك بعد
ذلك . . ! والآن حدثنى أيها الملك ، هل تعتقد أن الحب يموت
في القلب ؟

قال : بعد الذى شهدته اليوم ، أعتقد أن الحب لا يموت في
أى مكان ، فسألتها الملكة « هل تعتقد أن الرجل الذى أحب
امرأة . أحبها حباً عظيماً عبر به حياتين . يمكن ألا يحبها ؟
قال الملك : إن ذلك محال . .

قالت : أعلى يقين أنت مما تقول . . ؟

قال : كل اليقين . .

قالت : شكرا لقد أشعت الأمل في قلبي ، ترى متى يؤوب
« مری » ! .. ؟

قال الملك : يجب أن ندبر وسائل للحياة والعيش ، لأن على
أن ألقى هذه الفتاة ، هذا المساء ..

قالت الملكة : أجل يجب أن نفكر في هذا الأمر ..
فقال الملك : وأن نلتمس هذه الوسائل في أى سبيل يعرض لنا .
قالت الملكة : دعنا نفكر معاً في الأمر ، حتى يقبل « مری » .

خرج مري مع صاحب الحان ، تغلى فى جسده مراحل الشهوة والغضب .. وكان يصيح « .. إنى لن أغفر لها ما فعلته .. » فقال صاحب الحان هون على نفسك أيها الفتى ، إنى أدخر لك فتاة أخرى بيضاء كالطهر ، متفتحة كالزهرة الجميلة ، ناضجة كالثمرة الشهية ، تفوقها حسنا وبهاء وفتنة . إن هذه المرأة ستخضع لك فى يوم قريب وسوف تسجد عند أقدامك ، إن الشيطان لم يبدع الشهوة ، الا لتكون خادما للشر وعونا عليه ، وما دمت تعمل للشر فسيأتى يوم تراها أطوع لك من بناتك ، والآن تعال نشرب معا شيئا من الخمر .. »

وجلسا فى ركن من أركان الحان يحتمان كؤوس الخمر وسأل الرجل الفتى وهو يقدم له كأسا جديدة .. « حدثنى أيها الفتى الشجاع : ماذا كان شعورك وأنت تنفذ بسكينك إلى قلب الرجل » — قال الفتى لم أستمع شيئا ..

قال الرجل — يالك من فتى جسور .. ألم تنادك أصوات من داخلك ألا تفعل . ؟

قال الفقى : كلا ، لم أسمع شيئاً .

قال الرجل : يالك من شجاع ، إن دولتنا ستحتز بك ، والآن أنظر أيها الفقى ، لقد بدأت الفتاة تطل علينا من نافذتها ، يا لقلب العذراء ، الذى طال أمد انتظاره ، ما أيسر أن يفتح لأول طارق ، إنها ليست فى حاجة إلى مال ، وليست فى حاجة إلى لآلىء وجواهر ، إنها لا تتطلع إلا إلى الشباب ، أنظر انها تتأمل حسنك وشبابك .

قال الفقى : وما السبيل إليها ؟

قال الرجل : سأمهد لك سبيل اللقاء ، إن الأمر يحتاج إلى شئ من التدبير . إن هؤلاء الناس يعلون كم هو ثمين قلب العذراء وكم هو هواء ، إنهم يضعونه دائماً فى خزائن من حديد ، فصبراً أيها الفقى حتى أمهد لك سبيل هذا اللقاء ، لقد عاهدتك وسأكون لعهدى حفيظاً إنك تستحق منى أعظم الجزاء . . لقد رضيت أمس أن تكون كاهناً لمعبدى .

قال مرى : كاهناً لمعبدك . . !

قال الرجل : أعنى قبلت أن تكون زعيماً ورائداً لهذا الحان ، من واجبك أن تحضر كل ليلة ، ولن نسمح لأى فرد بالدخول إليه قبل أن يدخل الزعيم ، ستجد الذهب والفضة بين يديك تنفق منها بغير حساب ، فليس مثلك من أبخل عليه بالمال ، لقد أعددت

لك جناحا كبيراً فى فندق من فنادق المدينة تقيم فيه ما شئت
وشاء لك هواك ، والآن هيا أيها الفتى لأمضى بك إليه قبل أن
تطلع الشمس ..

ونفض « مرى » فأخذ مكانه إلى جانب الرجل . ومضت
السيارة تنهب الأرض بهما إلى فندق « مينا هاوس » .. وحين
وقفت السيارة عند بابه تذكر « مرى » المسكان ، وتذكر رفيقيه
اللذين تركهما فى الليل على السور الحجرى ، فقال لصاحبه :
هل سأزل فى هذا المكان ؟

قال : أجل .. لقد بعثت إلى القائمين على أمره بأن يستقبلوا
اليوم أميراً عظيماً ، ودفعت إليهم ما طلبوه من مال ..
قال الفتى : .. ولكن ..

قال رفيقه : لماذا تتردد .. ؟ !

قال : إن لى رفيقين ينتظرانى فى الصحراء ..

قال صاحب الحان : لك رفيقان .. ولماذا لم تحدثنى عنهما قبل
الآن ، لاشك أنهما على مثال ذكائك وشجاعتك ، تعال نبحث عنهما
ومضيا على الطريق بسيارتهما ، ولاح لهما من بعيد شبح الملك
والمسكة جالسين ، يتدبران فى الطريق الذى سيسلكانه إلى الحياة ،
وقال « مرى » مشيراً إليهما « ها هما .. أسرع إليهما .. » ومضت

السيارة حتى وقفت على بعد خطوات منهما ، فهبط « مري »
ورقيقه .. ولما بصرت به الملكة نهضت واقفة ومضت إليه
فرحة منها وصاحت « .. مري ، لقد عدت ، تعال يا حبيبي نفكر معا
من أى سبيل سنلتمس وسائل الحياة .. »

فقال الفتى ساخراً : إذن لم تسعفكما السماء . إنكما تجهلان مدى
ما يفصل بين الأرض والسماء ، إننى أقدم لكما صديقي ، إن فى
وسعه أن يعاونكما فيما أتما بسبيل تديره ...

فقال صاحب الحان : إننى طوع أمركما ، ماذا تريدان ؟

قالا : وسائل الحياة ...

قال : ما أيسر ذلك على ..

قال الملك : هل تستطيع حقاً .. ؟

قال : إسألوا رفيقكما هذا ، لقد كنت بسبيل إنزاله فى هذا

المكان مع أعظم سراة العالم ، وأوفرهم جاهاً ونفوذاً ...

قال الملك : تعنى هذا المعبد ، لقد طردنى النوبيون منه ، أى

هو ان هذا ، يجب أن يدفعوا ثمن ذلك فى وقت قريب ...

قال الرجل - عن أى معبد تتحدث .. ! ؟

قال الملك وهو يسير إلى الفندق : هذا المعبد ..

فقال الرجل : إنه ليس معبداً ، إنه فندق ، يأوى الناس إليه

فيقتضون فيه بعض أيامهم ، ثم يمضون ، ويدفعون عن ذلك بعض المال .

قال الملك - إذن لماذا ضاقوا بي وقد كان في وسعي أن أدفع لهم الكثير من المال . إن الخزانة الفرعونية مازال عامرة بالأموال .

قال الرجل - أى خزانة .. ؟ وماذا قلت لهم .. ؟ !

قال الملك - لقد سألتوني عن إسمي فقلت لهم « إننى الملك خوفو » فتصايحوا من كل جانب وقالوا « مجنون » ثم أقبل إلى رجل حسن الهندام فقلت له « لقد اخترتك رئيسا لخدمى .. » فضحك الرجل ، ولم يلبث أن نادى النوبيين ، الذين تجمعوا حولى ودفعوني إلى الخارج . لقد قاومتهم ، ولكنى مع ذلك غلبت على أمرى ... أيلقى خوفو ذلك ! . أأطرد من المعابد كعبد حقير .. سوف آخذ بثأرى فى يوم قريب .

قال الرجل : ولكن خوفو قد مات منذ آلاف السنين ..
فقال الملك : إن الآلهة هى التى ردتنى إلى الحياة ، إله العدالة أوزيريس ..

قال الرجل : من يستطيع أن يصدق ذلك ...

قال الملك : من يستطيع .. ! ألا يؤمن الناس بهؤلاء الآلهة ؟

قال : كلا ..

قال الملك : ماذا يحدث لو علم «رع» بذلك ... ؟

قال الرجل : لقد مضى «رع» وولى زمانه ، لقد عهد الناس منذ تولى عهدك العديد من الآلهة ، وكان لهم في كل عهد إله ..

قال الملك : واليوم ؟ .

قال الرجل في شيء من الحقد والمرارة : اليوم تجلى الحق للبشر ، هذا الحق الذى كان يومض فى عقل البشرية من حين إلى حين ، قد سطع الآن فى كل مكان ولم يعد يعبد على الأرض إلا الله الواحد

فقال الملك : إن حديثك يفسر لنا أشياء كثيرة عرضت لنا فى بعضنا هذا ، لقد وعدتنا بوسائل الحياة ، فهل فى وسعك أن تمهد لنا هذه الوسائل ... ؟

قال الرجل : أجل ، أجل ، ولكن يجب أن أستيقن من أمر

قال الملك : أى أمر .. ؟

قال الرجل : أريد أن أستيقن أن أملا لا يراودكما فى النجاة من أى طريق آخر غير طريق ..

قال الملك : فى وسعك أن توقن بهذا .

وقالت الملكة : فى الحق لم يعد ثمة أمل على الأرض ..

وقال الرجل : وأريد أن أعرف أيضا أنه لم يعد ثمة أمل
فى السماء ، أيضا

فقال الملك والمملكة معاً : السماء .. السماء ! ليس من الواجب
أن نفقد الإيمان بالسماء

قال الرجل : إذن ليس لكما عندى شيء ، هل نسيت أيها
الملك هذه الفتاة التى واعدتها على اللقاء ، الليلة ، وأنت أيتها المملكة ،
هل نسيت قتلك ، وحبك .. هل نسيتها الحب .. أريد أن أسمع
أنكما فقدتما إيمانكما بالسماء .

نظر اليه الملك ثم نقل بصره إلى المملكة وقال :

- لولا « الحب » لما كان فى وسعى أن أقولها .. « لقد فقدت
إيمانى بالسماء »

فقال الرجل للمملكة : وأنت أيتها المملكة الجميلة ؟

قالت صوت خفيض : لقد فقدت إيمانى بالسماء ..

فقال الرجل : حسنا ، إركبا هذه السيارة ، وسيطوف بكما

« مرى ، المدينة ليريكما ، معالم الزمن الحاضر ، ثم يعود بكما الى
هذا الفندق ، فتزولون به جميعا على الرحب والسعة . لا تنسوا أنكم
جميعا أمراء قد أقبلتم سائحين من بلاد بعيدة ، لا تنسوا هذا
وسأمضى الآن لأترك للقائمين على أموره ما يحتاجونه من مال ...

وبعد برهة كانت السيارة تنطلق بهم مسرعة الى المدينة.

في تلك اللحظة ، بدأ الصبح يطلع رويداً رويداً على السكون
وبدأت فلول الظلمات تفر من أضواء النهار التي كانت الشمس
تطلقها أمامها على الأرض قبيل الشروق ، وانشقت الأرض عن
« إله الشر » فتجرد صاحب الحان من كل ما استعاره من ملامح
الآدميين وتبدى الشيطان ، مجرداً من ثيابه .

قال إله الشر : ماذا فعلت ؟

قال الشيطان : لن يغلبنا غالب بعد اليوم ، راهن آلهة الخير بكل
مالديك من مال على الفوز بهؤلاء البشر ، لقد كسبناهم ليعملوا في
جانبنا إلى الأبد .

قال إله الشر : أخشى أن نفقد الرهان هذه المرة أيضاً .

قال الشيطان : إن الفتى الذي إنتزع منه أوزيريس قلبه كنز
من كنوز الأرض لا يقوّم بمال ، إن الصوت الذي أودعته الآلهة
في صدور الناس ، ليحذرهم الشيطان ، لا أثر له في كيانه ، إن جسده
سيظل ملتصقاً بتراب هذه الأرض ، إن الشهوة هي كل مبعثها -
وما دامت الشهوة ملك يميني ، فسأملأ به الحياة شرواً وذنابل ،
أما الملك والملكة فقد انتهى بهما الأمر إلى فقدان الايمان بالسماء .

قال إله الشر : وما الذى أغراهما بترك الايمان بالسماء ؟
قال الشيطان : الحب .

قال إله الشر : الحب . . !

قال له الشيطان : أجل يا مولاي .

قال إله الشر : إن هذا الانسان يحيرنى ، لقد رأيت الحب يرفعه
مراراً إلى أعلا عليين . فكيف حدث هذا ، إننى لا أجسر على
الرهان . .

قال الشيطان : راهن وأنا الكفيل لك بكسب الرهان . .

وفيما كانا يتحدثان بهذا الحديث العجيب ، كانت أنوار النهار
قد بدأت تتلاّأ خلفهما ، وسمعا صائح الخير يصيح فيهما من أقصى
الشرق « هيا يا عناصر الشر والظلمات ، إسرعى قبل أن تختنق
أنفاس النور . »

فصاح الشيطان : إشهدوا أولاً أننا إنتصرنا ، فأنتكم قوم شرفاء ،
لقد كسبنا هؤلاء البشر ، وسقط من يديكم سلاح الحب ، وسلاح
الايمان ، ولم يبق لديهم ما يستجيبون به لنداء السماء ، إشهدوا أننا
انتصرنا عليكم ، فأنتكم قوم شرفاء .

صاح صائح الخير : هيهات . . هيهات .

قال الشيطان : لقد كسبنا هؤلاء البشر .

صاح صائح الخير مرة أخرى : هيهات .. هيهات .

قال الشيطان : فهل تراهنون ؟

قالت عناصر الخير والنور : نراهن .

قال الشيطان : لقد وضعنا في كفة الرهان الشهوة والمال ،

فماذا أنتم واضعون ؟

قالت عناصر الخير والنور : الحب والإيمان .

قال الشيطان : لقد قبلنا الرهان .

وعادت عناصر الخير والنور تصيح : هيا إذن قبل أن تحتنقا

في أنفاس النور .

وأشرقت الشمس وانشقت الأرض ، فهبط إله الشر ، أما

الشيطان فقد جمع ملبسه وملامحه التي سقطت عنه منذ لحظة ثم

حملها على ظهره وولى الأدبار .. وما زال يعدو حتى وصل

إلى الحان .

في صبيحة يوم من أيام الشتاء ، وقد بدأ هذا الضباب الخفيف
الذى تركه الفجر يتقلص وينجذب عن وجه الأرض ، كأنه أنفاس
نائم هب من رقاده ، كان فندق « مينا هاوس » يستقبل شمس مصر
المشرقة ، كما يستقبلها كل يوم في غبطة وسرور ، وكان النزلاء من
الآجانب قد تفرقوا في الشرفات والنوافذ ، تعكس وجوههم
ونظراتهم روح الحياة المتجددة الأبدية التي تمضي في تربة هذا الوادى
وتسرى مع نسباته منذ الأزل ، لم تكن في كل هذه الوجوه الكثيرة ،
وجه واحد عابس أو مكتئب ، ولم يكن في كل هذه النظرات المتطلعة
نظرة واحدة كسيرة لم تلعب بالنور وتشرق بالأمل ، وقف القوم ،
يتأملون شروق هذه الشمس وماتعكسه أشعتها من أضواء وألوان
على الوادى الأخضر الجليل ، فيرون قمم الأشجار المنتشرة هنا وهناك
وقد توجهت الشمس بتاج مشرق من النور ، ويشهدون تلك الحياة
الهائلة الودیعة وقد بدأت تسرى فيما يدب على الأرض من نبات
وحیوان وإنسان . . وبينما كانوا يملأون عيونهم وقلوبهم من
لوحات الخلود ، ومفاتيح الطبيعة المتألقة حولهم على هذه الأرض ،

رأوا مدير الفندق يمضى مع بعض رجاله ليقف بهم أمام الباب ،
شأنه كلها وفد على الفندق بعض الزائرين من ذوى المقام العظيم .
ثم ما لبثت أن أقبلت سيارة كبيرة فوقفت أمام باب الفندق ،
وهبط منها رجلان وامرأة يرتدون ملابس زاهية مما يري تديه
أمراء بعض البلاد الشرقية البعيدة . . وأسرع الخدم يفسحون لهم
الطريق ، وهم يسعون إلى الداخل ..

واستحوذ مرآى هؤلاء الأمراء على كل نظرات النزلاء ،
التي كانت تسرح منذ لحظة فى أرجاء الوادى ، فمضوا يتأملون
هذه الوجوه الجديدة ، التي هبطت عليهم من تلك البلاد البعيدة ،
كانت المرأة فارعة القد مشوقة القوام ترتدى ثوباً من الحرير
الأبيض الموشى بالذهب والجواهر . . ولم يستطع هذا الثوب بالرغم
من طوله وسعته أن يخفى ما يحمله جسدها البضا الرطيب من مفاتن
وجمال . . أما وجهها ذو الصفحة البيضاء ، الذى لا ينطق بشيء . .
فقد بدا لهؤلاء الأجانب كما لو كان يخفى تحت صفحته كل أسرار
الشرق وسحره . . ولم يتأمل إلا القليل منهم . ما كان يتراءى
على وجهى الأميرين من مظاهر وملامح لقد بدا أصغرهما سنّاً
فى عنفوان الشباب وفورته ، وكان أبرز ما يتراءى من سماته ،
هذا الوجه الجميل الذى لفحته أشعة الشمس ، وهذه النظرات الشاردة

التي لا تكاد تستقر على شيء .. أما الثالث فكان يعكس على صفحة وجهه كل روح الشرق .. تسطر تقاطيعه الجامدة ماضى هذا الشرق الطويل في جهاد الحياة ، وتنبي ملاحمه القوية عن بعض ما يزرع به من إيمان عميق ، بمثله ومبادئه .. وتدل نظراته التي تمس الأشياء والمناظر مسأ رقيقا ، على ما يحمله قلبه من استخفاف ، بكل ما لا يتصل بجواهر الأشياء وبواطنها .

سار مدير الفندق معهم حتى وصلوا إلى جناحهم الخاص .. ثم مضى يطوف بهم في حجراته وأبائنه وأشهدهم من الشرفات على المناظر الجميلة التي تزخر بها الأرض حولهم في كل مكان في قلب الوادى ، أو على وجة الصحراء .. وحين هم بالانصراف وبيننا كان يصفح الأميرة ، قال لها وهو يبتسم .. « .. يسرنى يا صاحبة السمو أن أخبرك بأنك ستزين في مخدعك تمثالا جميلا للملكة قديمة .. وليس لدى ريب في أنك حين تبصرينه ستعتقدين أنه صنع لك .. لقد صنعه مثال شهير ونقله عن الأصل الموجود الآن في الخارج .. » ثم انحنى الرجل قليلا وتركهم يتأملون المناظر أمامهم من إحدى الشرفات ..

و حين خلت الشرفة بالمبعوثين الثلاثة .. مضت الملكة فوقفت إلى جانب « مري » وقالت « تأمل يا مري مناظر هذه

الطبيعة الساحرة .. تأمل هذه اللوحة الرائعة التي اجتمع الأرباب على صنعها ووضع ألوانها .. ماذا تبعثه إلى نفسك .. تأمل هذه الأغصان التي تميل إلى بعضها في حنان وحب .. ماذا تحس يا مري » فقال الفتى في غلظه : لا شيء ..
قالت : ألا تحس النشوة تسرى إلى جسدك وقلبك لرؤية هذا الجمال ..

قال : ماذا تعنين .. إنني لا أحس شيء البتة ..
نظرت الملكة في وجهه ، ولم تصدق عينها حين نقلت إلى حسنها صورة جديدة للفتى الذي أحبته في سالف الزمان ، صورة ليس بها عهد من قبل ، وبينما كانت الملكة تتأمله في دهشة ، قال الملك « إنني لم أنم ليلتي .. إن بي رغبة شديدة إلى النوم » ثم غادر الشرفة وانطلق إلى مخدعه .. وعادت الملكة تحدث فتاها فقالت :

— مري .. لماذا تبدو هكذا .. تعال نرى هذا التمثال الذي حدثنا عنه هذا الرجل ، فلعل قلبك أن يستيقظ على نجوى الفن وهمسه ، مادام صوت الموسيقى ومرأى الجمال وحديث الحب لم تحركه .. » ثم أخذته من يده ومضت به إلى حجرتها .. وهناك رأت تماثلها .. التمثال الذي صنعه « مري » في العهد القديم ،

يرنو اليها من ركن من أركان الحجرة .. فصاحت مخبطة فرحة
« آه يا الآلهة .. ها هو وحى حبك القديم يا مري يبعث من جديد »
ثم تقدما حتى وقفا أمام التمثال فقال مري « ما هذا ؟ ! » قالت
الملسكة « هذا وحى حبك ، سوف يستيقظ قلبك يا مري من
تلك الهجعة التي هجعها منذ بعثه .. آه .. بغيض أن يرقد قلب
الانسان هكذا ، فلا يستشعر لذة الحب .. أنظر إلى روعة التمثال
يا مري ، ليس في وسع أحد أن يشك في أنه التمثال الذي
ابتدعته .. ما أعظم عبقرية الفنان الذي نقله ، ماذا ترى يا مري .
قال الفتى - لماذا صنع الحجر على هذه الصورة الغريبة .. ؟ !
قالت الملسكة في دهشة - ألا يوحى إليك بشيء .
قال - أى شيء يمكن أن يوحى به إلى الانسان مثل هذا الحجر ؟
قالت - .. حجر .. ! هذا تماثلك يا مري التمثال الذي ابتدعته
للحب .. هل نسيت أنك كنت تقول لى إنه لم يكن لك ، أن تودع
اليقظة قبل أن تملأ منه عينيك ..
قال - أنا قلت ذلك ... لماذا قلته ... ؟
قالت - هل نسيت الفن أيضا ...
قال - الحب .. والفن والجمال .. ماذا تعنين بهذه الكلمات ؟ إننى
أشعر بالضيق ، حين أسمعها تتردد أمامى ..

قالت - ويلاه .. مری ماذا أصابك لقد أثر البعث فيك ..
إنك مریض .. مریض ما في ذلك شك ... هيا أخلد إلى الراحة
وسأبعث في طلب طیب لیراک .. هيا ..

فقال الفتی - وهو یمضی خارجا - .. مریض ... ما أغرب
هذا .. إننی سأخلد إلى الراحة لأن متعة تنتظرني الليلة في الحان ..
فأسرعت إليه الملكة وأمسكته من ذراعه وقالت : .. ماذا
تقول .. أية متعة ... ؟

قال وهو یرفع یدها عن ذراعه - « دعینی .. لن أحدثك عنها ،
بعد أن سفكت من أجلیها الدماء .. »

وتراجعت المرأة خطوات إلى الوراء وقالت في فزع - « ماذا
تقول .. ماذا تقول .. إنك تهذى .. لقد أصابك مس .. لن
أدعك هكذا .. وسأمضی الآن لأبعث في طلب طیب » وضحك
الفتی ساخرا وتركها ومضی إلى حجرته ... وسعت الملكة من ،
فورها إلى مدير الفندق ورجته في لهفة أن یربعث في طلب أحد
الاطباء ، لأن بعض أعراض المرض قد ظهرت على الأمير
الشاب . وعادت إلى حجرتها محطمة القلب مشتتة الفكر وجلست
تفكر في أمر هذا الفنان ، الودیع الحالم ، الذی أحبته في
الماضی ، والذی ارتفع بها وبحبها إلى أعلا الذرى في عالم الروح ،

حتى لم يعد قلبها ينبض بالحياة بقدر ما ينبض بهذا الحب ... كيف
تبدل هكذا ... ؟ كيف أصبح قاسيا فظا غليظ القلب .. متبلد
الحس والشعور .. ؟

وبعد لحظات طويلة مضية من الترقب والانتظار أقبل
الطبيب ، جلست تحدّثه عن حبيبها فقالت له « إن ما حدث له فظيع
فظيع .. ياسيدى لا يمكن تصوّره . »

قال الطبيب - ماذا حدث له ياسيدتى .. ! ؟

قالت - هنالك حقائق ياسيدى ، إختفت من حياته .. ودعت
عقله وقلبه .. كان يحفظها ويعيها فى سهولة ويسر - إنها حقائق
خالدة تأتى إلى كل العقول والنفوس . ولكنها إختفت من حياته .
قال الطبيب - إننى لم أفهم شيئاً ياسيدتى

قالت - آه ياسيدى .. لقد كانت حواسه مرهفة دقيقة ،
تلتقط أدق الاحساسات وأعمقها خفاء .. لم تكن قدرته تنف
عند حدود الحس المادى ، بل كانت تتخطاه إلى عالم الروح ،
فكان ينقل إلى المعانى التى تهب من الأطلال الدارسة ، وكان
يصغى فى نشوة إلى الموسيقى التى تطلقها هبة النسيم الخفيفة ، وكان
يشعر باهتزاز الهواء عند سقوط ورقة من أوراق الشجر .. أما
الآن .. الآن : فلا شىء يهزه ؛ لا شىء .

فقال الرجل في عجب - إني لم أدر بعد علة صاحبك ،
فدعني أراه ..

ونَهَضَ الطبيب ومضى معها إلى حجرة « مری » ولقيهما الفتي
في شيء من الدهشة - فقالت له الملكة « لقد جئت لك بالطبيب
يا مری »

قال - ولكن ليس بي مرض .

قال - لا تقل هذا .. إنك لا تدري ماذا كنت ، وكيف
أصبحت ، تعال ودعه يرى علتك .

قال : إني لست مريضا ..

وتقدم إليه الطبيب .. وقال - دعني يا بني .. أفصل في هذا
الأمر .

فقال مری : سترى أنني أوفر منك صحة ..

فقال الطبيب - إنه يسرني أن أراك كذلك .

واستجاب الفتي للطبيب ورقد على فراشه ... ومضى الرجل
يتحسس صدره وينقل سماعته عليه ، ثم مضى يحملق في الفتي ويطل
التأمل فيه ، ثم نقل بصره إلى الملكة وقال :

- هذا عجيب ، عجيب ، محال ، تلك معجزة .

فقالت الملكة في جزع : ماذا به ياسيدي ، كنت أعلم أنه مريض

فقال الطبيب : ولكن هذا محال ، محال .. يجب أن أدعو
جماعة من الأطباء ليتثبتوا من هذا .

وخرج الطبيب مسرعاً وتبعته الملكة في سكون ، وحين
توقفنا في الردهة سألته : حدثني يا سيدي هل هناك أمل فيشفى ؟
قال الطبيب : آه .. لا أدري .. لا أدري .. أنها معجزة من
المعجزات الالهية التي ما ينفك الطب يشهد بها كل يوم في حياة
الناس ، والتي لا يملك ألا أن يقف أمامها عاجزاً حائراً ، مقراً
بعظمة الخالق وقدرته .

قالت الملكة : ماذا به يا سيدي ؟

قال الطبيب : لن أعلن ذلك حتى أدعو جماعة من الاطباء ..
ليروا هذا الانسان

قالت : لا أستطيع أن أنتظر .. لا أستطيع يا سيدي أن انتظر
بعد هذا كله ، أرجوك .

وظل الطبيب يتأمل المرأة التي تتوسل إليه ثم قال : ولكن ،
حدثيني يا سيدي .. ما هي الحقائق الخالدة التي إختفت من
حياته ؟ ما هي الحقائق الخالدة التي لا يعرفها ، التي لم تعد تأتي
إلى عقله .

قالت : وقد بدأت الدموع تلعب في عينيها الواسعتين « الحب

أيها الطبيب ، والجمال والفن ، إن الموسيقى تؤذى سمعه ، والجمال لا
يبعث الذشوة فيه ، والفن لم يعد يدرك معانيه الرفيعة السامية ..
آه والحب لم يعد يصل إلى قلبه .

وهز الطبيب رأسه وقال : لقد ظهرت حقيقة أمره على صورة
لا تحتل شكاً ، لم أعد في حاجة إلى رأى إنسان ليؤيد ما استقر
عليه رأى

قالت : إذن حدثنى يا سيدى ماذا أصابه . ؟

قال : إن صاحبك ليس له قلب

صاحت فى جزع : ليس له قلب ! ؟ .

قال : أجل

قالت : فلن يستجيب إذن لحي !

قال : إنه لن يستجيب لشيء جميل على هذا الارض ..

قالت : أيها الطبيب ، أيها الطبيب ، ألا يوجد ثمة أمل ..

قال : لا

قالت وقد انحدرت الدموع من مآقيها : لا تقل لا . لا تقل لا ،

قل يوجد أمل .

فقال الرجل : وإن كان يبدو ألا أمل ! ..

قالت وهي تبكي : أجل وإن كان يبدو ألا أمل ، فليس من
من العدل أن يمضى حب كهذا بغير أمل

واهتزت الملائكة وأظلمت الدنيا في عينيها وهوت على
الأرض ..

استيقظ الملك خوفو قبيل الغروب ، وقضى بعض الوقت في
حجرته . وبدأت حكمة أوزيريس تظهر فيه وتفعل فعلها في نفسه ،
لقد قضى وقته ضجراً لا يستقر على حال .. ثم خرج بعد لحظة
إلى حديقة الفندق ، جلس يتأمل الناس .. لم يكن أحدهم به .. ولم
ير في نظراتهم هذا التقديس ، والاحلال الذين تعود أن يطالعهما
في عيون شعبه من زمن بعيد .. ولم يطق — الرجل ذو القلب
الكبير — المقام في هذا المكان .. فنهض ومضى ثانية إلى حجرته
وأغلق الباب وراءه . وقال يحدث نفسه ، وهو يسير في الحجرة :
« آه لم يعد لي أن أرفع صوتي باسمي الملكي — بعد الذي رأيته
من هؤلاء النوبيين أول يوم بعثت فيه إلى هذه الأرض ، ولكن
هؤلاء الناس لا يحسون وحدهم أبداً .. لا بد لهم دائماً من كاهن ،
إن نظراتهم تشعرني بالذل والهوان ، لقد أصبحت هذه الحجرة
الضيقة هي كل ما منحتني الحياة .. أنا الذي بنيت هذا الهرم ..
إن قلبي يكاد يختنق في صدرى — لماذا لم يبعثوا معي جندي
وكهنتي .. ؟ يا للآلهة .. لقد ضاقت الدنيا في وجهي حتى

أصبحت هذه الحجرة الصغيرة ، إنها تبدو كسجن رهيب . . .
ثم جلس على مقعد إلى جوار النافذة ، وراح يتأمل الفضاء
أمامه في استسلام ويأس . . . وخفاة لمعت عيناه ببريق جديد ثم
قال : « . . . لقد نسيت موعد الفتاة ، إنها وحدها التي تستطيع
أن تشفيني من هذا الضيق ، يا سخرية القدر . . . ! لقد أصبحت
هذه الفتاة التي لا تسمو على راقصة من راقصات المعابد ، هي كل
أمل الملك . . . » ونهض وارتدى ملابسه ، وجلس لحظات ينتظر
جلاء آثار النهار من على الأرض . . . ثم خرج مع إقبال الليل إلى
الصحراء واتجه إلى الصخرة التي واعد الفتاة على اللقاء عندها ، إلى
جانب أبي الهول ، وظل لحظة جالسا في ضوء القمر يتأمل
هذه الظلال التي تمتد خلف الآثار المهدامة ، والتي تتفاوت طولا
وقصرأ ، وتبدو وسط هذا السكون كأشباح تتحرك بين
الأطلال ، ثم وصل إلى أذنه بعد هنيهة صوت أقدام خفيفة
تطرق الأرض من بعيد ، فاتجه ببصره إلى مصدر الصوت
فرأى شبحا يتحرك إلى جانب الهرم الأكبر . وظل الملك يرقبه
وهو يقترب ويدنو منه حتى استيقن أنها فتاته . فنهض وأسرع إلى
لقاءها ، كانت عايدة ترتدي ثيابا فرعونية قصيرة ، وتضع فوق رأسها
تاجا زاهي الألوان على هيئة زهرة اللوتس ، وتلمت الفتاة يد الملك بين

يديها وقالت « أين ثيابك الملكية ، ولماذا بدلتها ، إن ثيابك الآن لا تنسجم مع هذا المكان .. » ثم سارا جنبها الى جنب فجلسا على الصخرة الكبيرة القائمة على الطريق إلى جانب أبي الهول .. وعادت الفتاة فقالت للملك : ألسنت تود الآن أن ترتد إلى الزمن الماضي ، إنك ستبدو غريبا فيه بهذه الثياب ، لقد نسيت أن أسألك هذا الصباح عن اسمك .. لأنى كنت أخشى على الحلم الجميل أن يفقد منى - إذا عرفته - إننى أود أن يظل اسمك خوفا كما جاء إلى فى أحلام هذا الصباح ، ومع ذلك فليس الاسم كل شيء ، أجل ليس الاسم كل شيء . حسبي أن يفتنك هذا المجد ، وأن تستهويك هذه العظمة وهذا الخلود ، هذه الأشياء التى تفتنى ، لأطمئن وأعلم أن قلوبنا نحر الاثنان يتجهان إلى غايات وأهداف واحدة وأننا نستطيع أن نتحاب كما تتحاب كل القلوب التى تستشعر الشعور الواحد .

فقال الملك — ولكن لماذا يحدث ذلك . ألا يمكن أن يأتى الحب وحده إلى القلب ؟

قالت — كلا . إن الحب العظيم لا يلتقى وحده إلى القلب أبدا . وليس هناك أروع من الحب الذى يمتد إلى القلب جنبها إلى جنب مع المجد .

قال الملك — لماذا ؟!

قالت — إن القلب الكبير الذى اكتمل ونضج لا يرى الحبيب ولا يحسه الا مع المعنى الذى يحبه ويهواه ، هناك قلوب تهوى المال ، وقلوب يفتتها معنى المجد ، وقلوب تسمو إلى المعانى الروحية التى لا تتصل بشئ مما على هذه الارض ، والحب لا يأتى إلى أى من هذه القلوب الا مقتربا بالمعانى التى يحبها ويهواها قال الملك — وما الذى يفتن قلبك أنت من بين هذه الأشياء ؟ قالت — المجد . . .

وصمت الملك لحظة ، وتبدت على وجهه سحابة خفيفة من الأسف ، وظل ينظر إلى الفتاة فى سكون وهى تتكلم : «... أجل المجد ، يفتنى الانسان الذى يهدف بتفكيره وعمله الى الذروة ، الانسان الذى يعمل للمجد ويهدف للخلود ، إنه لن يكون أناانيا أو مغرورا كما يتوهم الناس ، لأنه لا يكسب المجد أنانى أو مغرور » وقاطعها الملك بقوله — إننى لا أفهم ماتقولين ، ولا أعرف معنى المجد ، ولا كيف يكسب الانسان المجد ، ماذا تعنين بالخلود ؟ فنظرت الفتاة إلى وجهه فى عجب ، وقالت — ألا تعرف المجد والخلود ، ألا تعرف كيف يكسب الانسان المجد ! ألم يأتك خبر هذه القضايا الكبرى التى يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ،

تلك التي لم يخل منها عصر من العصور ، إن هذه القضايا في حاجة إلى الانسان العظيم ، إلى الأبطال ليدافعوا عنها بكل ما يملكون ، وبحياتهم أيضا إذا لزم الأمر ، فإذا بلغوا الغاية كسبوا المجد ، وإن سقطوا سطر التاريخ أسماءهم في سجل الخالدين ، هؤلاء هم الذين يكسبون المجد وينالون الخلود ...

فقال الملك ، وهو يشيح بوجهه بعيدا عن نظرات الفتاة المتألقة أمامه : المجد والخلود والعظمة ، هذه الكلمات لا أعرف معناها ...

قالت - لا تعرف معناها ... !

قال - أجل ، لا تأتى إلى عقلى ، على معنى من معانى الكلمات .
قالت - عجيب هذا ، فلو جودك بين الآثار العظيمة وما ارتدأوك

أثواب العظام ، إذا لم يكن المجد طلبتك والخلود غايتك . !

قال فى ضيق - لا أدري ، لا أدري . !

قالت الفتاة - ليس فى وسعنى أن أخدعك ، إنه من الضرورى أن يهوى قلبك المجد ، لنتحاب .

قال - وليس لى أن أخدعك ، إننى لا أستطيع ...

رساد بينهما صمت رهيب كأنما تفصل بينهما هوة بعيدة القرار ،
وهتفت الفتاة تحدث نفسها - « أهكذا تمضى الأحلام . ! »

ووقف الملك وقال - إني ماض ..

ونفضت الفتاة جزة وقالت - إنتظر . إنتظر . لا يمكن أن يحدث ذلك ، قف حدثني ، أأست على استعداد للذود عن الحرية بحياتك إذا طلب منك أن تدافع عنها ، أأست على استعداد للوقوف مع الضعيف ، في وجه الظالم ، لتدافع عن حقوق الانسان ، قل إنك تستطيع .. قل إنك على استعداد لأن تفعل ذلك

قال الملك - لماذا أفعله ، ولأى سبب ، وماهى الغاية ؟

قالت - آه إنك يائس ، هكذا يبدو لى ، إجلس حدثني عن سر حياتك ، إن كنت فى حاجة إلى المال فلدى منه الكثير ، وإن كنت فى حاجة إلى الجاه ، فإن إسمى يستطيع أن يسطع علينا نحن الاثنان ، لنلصق فى المجتمع كالنجوم - فقط قل إنك تسمى إلى الغايات العظيمة .

وظل الملك صامتا لحظة وهو مطرق إلى الأرض لا يتحدث بشىء ، ثم رفع رأسه ونظر إلى الفتاة المائلة أمامه والتي تهتز على ضربات هذا القلب الذى ينبض فى صدرها وقال « لا إنى لا أستطيع ، ليس فى وسعى أن أفهم هذا الذى تدعينى إليه .. لا أقبل أن أخدعك فى أمر نفسى - لا أستطيع أن أدعك تفتحين قلبك لى ، إنى أشعر بأقفار روحى من المعانى التى تحبينها

وتهوينها . إني إنسان يتعذب ، هكذا يخيل لي ، أحس ألا ما لا يمكن
أن تتصورها ، إن قلبي يكاد يخشق في صدري ، إني أسمع دقاته
تدوي وتدوي ، ولكن ما تلبث أن ترتد إليه . صاحبة فزعة
كأنما آذاها ألا تجد أمامها أفقا فسيحا تتردد فيه . إنها تؤلمني ،
وتحز في قلبي كسكين ، إن أفكاري وآمالى ما تكاد تخرج إلى الوجود
حتى آراها تسقط ميتة أمامي مختنقة بهذا النسيم الوضع الذي تهب
على به الحياة ، إن هذه الحياة تبدو ناقصة في عيني ، وإن ما تملئ
به من الأشياء والمعاني تعجز كلها عن أن تمدني بمعنى الحياة ، تعجز
كلها عن أن تمدني بحاجات قلبي ، إني سجين معذب وليس لك أن
تربطي فكري وقلبك بسجين معذب ، لقد كنت أيتها الفتاة الشيء
الوحيد ، الذي بدأت أحب الحياة من أجله ، ولكن إنتهى كل
شيء .. وداعا .

وتركها ومضى مسرعا إلى الفندق ، وهتفت الفتاة ولم تك
تفريق من دهشتها « إنتظر ، إنتظر ، إن لك قلبا كبيرا ! »
وحين وصلت كلماتها إلى سمع الملك قال يحدث نفسه « وليس
لقلب كبير أن يتسفل ، فيطمح الى شيء ليس له فيه نصيب . . »
ورآته الفتاة من بعيد ، يدخل الفندق ، ثم يغيب عن
ناظرها .

عاد الملك إلى غرفته حرج الصدر منقبض الفؤاد ، وبدأ يضيق بكل شيء يتع عليه بصره ، حتى هذا الهواء الذى يتنفسه ، كان يزيد من حرجه وضيقه .. أحس برغبة قوية فى الفرار من هذا الجو الخانق الذى يجلس فيه ، فغادر حجرته وما زال يمضى حتى وجد نفسه أمام مخدع الملكة فامتدت يده وفتح الباب ، ثم وقف يتأملها وهى راقدة على سريرها ، تقدم إليها ومضى يهزها حتى فتحت عينيها فقال لها — أما آن أن تستيقظى .

قالت : آه من أرى ، الملك خوفو .. إن اليقظة مؤلمة .

قال : ولكن من الضرورى أن نستيقظ مع ذلك .

فاعتدلت الملكة وجلست على فراشها وقالت وقد ارتسمت على وجهها صورة رهبة للآس « .. إنه مفزع أيها الملك أن يفتح الإنسان عينيه على الحياة ويمضى يدور فيها ، فلا تقع على أمل »

وجلس الملك أمامها على السرير وقال :

- أجل ومفزع أيضاً أيتها الملكة أن يكون القلب الذى

يحيا به الإنسان كبيراً ، ولا ترفع الحياة إليه من المعاني إلا ما يشبه دمي الأطفال ... !

قالت الملكة : هل عرفت لماذا كان مري ينكر حديث الحب ، ويتأذى من الموسيقى ، ولا يأبه للجمال
قال : لا

قالت : إنه بغير قلب ، بعشه أوزريس بغير قلب لعذابي
قال الملك : يا للقسوة ، وأنت هل تعلمين ماذا فعلت مع الفتاة؟
قالت : ماذا فعلت ؟

قال : لقد افترقنا وودعتهما ، لم يكن الحب يأتي إليها إلا مع هذه الأشياء التي لا أعرفها ... إنها ترسم للحياة صورة غريبة .. تهدف إلى غايات مجهولة ، وليس في وسعي أن أفهم هذه الصورة ، أو أسعى معها إلى هذه الغايات .. ويبدو لي أن الحياة لا تسير إلا بهذه الأشياء - كانت لا تكف عن ترديدها ، هل تعتقدن أن الآلهة قد أغلقت دونها عقلي .. لعذابي .

فقالت الملكة : إذن ولي الحب من حياتك أنت أيضاً

قال : أجل

قالت : ولم يبق لنا شيء . !

قال : بقي لنا اليأس وحده

قالت : ولماذا نعيش إذا لم يكن في حياتنا إلا اليأس .. ؟!

قال الملك : إنني أيضاً أتساءل ، لماذا نعيش .. ؟!

وبدت عيناهما كأنما أغمضتا ، وهما مضطجعان الواحد أمام الآخر ثم لفهما السكون وبدا كأن روحيهما قد إتصنتا في عالم جديد ، من عوالم الروح والأحلام — كان القمر يقف أمام نافذتهما يرنو إليهما من بعيد . وبعد لحظات غمرهما ضياؤه وراحت الظلال التي ترسلها أغصان شجرة الكافور القائمة أمام النافذة ، تتراقص في ضوء القمر على أرض الغرفة وسكن كل شيء — حتى النفس الذي يتردد في هذين الجسدين بدا ، وكأنه قد صمت إلى الأبد ... وفجأة إنطلقت أصوات مزامير كثيرة تدوى في الفضاء ، وبدأ الملك والملكة يتناجيان في نومهما من عالم الأحلام ...

قالت المللكة : إن إلها من الآلهة في طريقه إلينا

فقال الملك : لماذا ؟

قالت : ألا تسمع هذه المزامير ، ألا ترى هذه الظلال وهي

تتراقص على أرض الغرفة ..

قال — أى إله هذا الذي يفكر فينا الآن ؟

قالت — لا بد وأن يكون الإله « تحوت »

قال — ولماذا يقبل إلينا ؟

قالت — ليحمل الينا شيئاً غير اليأس

قال — ولماذا يفعل ذلك؟ ..

قالت — لأن هذا الإله يأبى دائماً أن تقفر حياة الإنسان
من أمل .

قال — هل من الواجب ، أن نؤمن بشيء من هذا ؟

قالت — أعتقد ، من الضروري أن تؤمن به .. مادمناعلى
الحياة ، أنظر هاهو « تحوت » يهبط من السماء أنه يقترب من
نافذتنا ، أسجد .. أسجد معي .

وسجدت الروحان اللتان تتناجيان من عالم الأحلام وتحدثت
الدموع الغزار من مآقيهما ، وهبط « تحوت » ونظر في وجهها وهتف :
— أتبكيان .. ؟

فيقولان — أجل أيها الإله

فيقول لهما — هل آذتكما الحياة ؟

قالا — ليس لهذا كل البكاء

قال — فما الذي يبكيكما .. ؟

فيقولان — أيها الإله الرحيم الشفوق ، إن البكاء رمز القصور
أمام القدرة الكاملة ، إنه معنى العجز الإنساني ، يقابل القدرة الالهية
التي لاتحدها حدود ، إنه إقرار الإنسان ، هذا المخلوق الذي يطغى ،

بالعجز وبالقدرة الالهية معا . إن العطف الإلهي حين يحل عن
الشكر ويتسامى عن الوفاء لا يلقي من النفوس البشرية الا الأقرار
بالعجز والقصور ، إن عظمة هذا العطف الذى أسبغته علينا لا يقابلها
فى نفسينا الا هذا البكاء .. إنه وحده الشكر الذى ترفعه روحانا
الضعيفتان إلى مقامك السامى وعطفك الكريم .

قال تحوت : ذلك إحساس نبيل ، كيف قضيتما أيامكما على الحياة ؟
قالا : فى عذاب مريع قاس أيها الإله .. لقد بعثنا بقلبيننا اللذين
عشنا على نبضهما فى الحياة الأولى ...

ثم سمكت صوت الملك ، ولم يعد يتردد فى أذن الإله الا صوت
الملسكة ، قالت : هذا الملك ، بقلبه الكبير ، لقد كان من الممكن أن
يسعد ، لو أن قلبه وجد فى الحياة المعانى التى تنسجم ونبضه ، ولكن
هذه المعانى لم تكن ترتفع إليه أبدا ، كيف يستطيع هذا الإنسان بهذا
القلب أن يفهم من الآلام !

ثم صمت صوت الملسكة ولم يعد يتردد الا صوت الملك .
قال : أما هى ، هذه الملسكة الجميلة .. فقد بعثت بقلبها .. هذا
القلب الذى لم تكن تهب عليه نسائم الحياة إلا مع رياح الحب —
لقد كان من الممكن أن يسعدها قلبها لو ظلت رياح الحب ، تهب
عليه ، ولكن وأسفاه لقد بعث قلبها بالحب ، وبعثت معه كل
بواعثه ودواعيه ، حين انتزعت الآلهة قلب الحبيب ... !

قال تحوت : كم يوما مضى وأنتما على هذه الحال ؟

قالا : تلك ليلتنا الثانية أيها الإله

قال الإله : هذا كثير ، لقد استوفيتم حقدكم من العذاب ، كثير
أن تركد الريح فلا تحمل الحب إلى القلب الذى عاش عليه ، وبعث
له ، ليلتان ، هذا كثير . !

فيقول الملك : وكثير أيضاً أيها الإله ألا تهب الحياة إلا
بالضعة والختارة ، على قلب كبير ، إنه عذاب قاس مرير
قال تحوت : هذا حق ولكن أين ثالثكم ... ؟ إننى لم أراه فى
فراشه ...

قالت الملكة : لقد حدثنى أيها الإله اليوم عما ينتظره من
متعات فى الحان ..

قال تحوت : آه تذكرت ، تذكرت .. إنه هذا الفتى الذى باع
نفسه للشيطان من أجل الشهوة .. لقد قتل نفساً ، وهو فى أول
الطريق إليها ، ترى ماذا ينتظره على هذا الطريق ... إننى أراه الآن
ساجداً أمام فراشها ..

قالت الملكة فى فزع : هل تتحدث من « مرى » ؟

قال تحوت : أجل ، هذا الفتى الذى انتزعنا قلبه

قالت الملكة : فلتحرسه الآلهة ، فلتنفذه الآلهة ، لأنى أحبه ..

فقال تحوت : إني سأمضى الآن ...

فتشبثت أيديهم ما به وهتفت روحهما « هل تتركنا هكذا !.. »
قال : سأرفع أمركما إلى الإله الأعظم « رع » إن رحمته لن
تسمح بأن تمضيا في هذا العذاب .

قالا : هل سيفعل ذلك حقا ... ؟

قال : أجل

قالا : وهل سيستجيب « رع » إلى رجائك . ؟

قال : أعتقد أنه سيستجيب

قالا : هل لنا أن نأمل ؟

قال : في وسعكما أن تأملا

قالا : وستعود إلينا بما أقفرت منه حياتانا .

قال : إنتظرا في غدا في مثل هذا الوقت ..

واهتزت أجنحة الضياء فصعد تحوت عليها إلى السماء وسمع
وهو في عليائه صوت الملكة يلاحقه وهى تهتف — لا تنس
« مرى » أيها الإله ...

واستيقظ الملك والملكة على صوت الأمل وهويغنى في قلبيهما
فقالا في صوت واحد « لقد صعد الإله إلى السماء .. »

قال الملك : أى حلم هذا .. !
فتجيبه المملكة : إنه لم يكن حلماً إنه تحوت ، هذا الذى أقبل إلينا ..
قال الملك : هل تعتقدين أنه الإله .. ؟
قالت : أجل أجل ، إنه هو الإله ، لأن أيدي الآلهة وحدها
هى التى تفتح للبشر أبواب الآمال
قال الملك : هو سيعود إلينا بما وعدنا
قالت : أجل أجل .. آه ، ألا ما أبغض نسمات الحياة بغير حب
ونهب الملك واقفا وقال : وغدا يتسع الأفق أمام قلبي ..
سيكون فى وسع العالم كله أن يصغى إلى دقاته ، وسترقى إلى عتلى
معاني الحياة وغاياتها .. وسأكون جديرا بحبها
قالت المملكة : وسنغدو فى الحياة سعداء ...
قال الملك : أخشى أن يكون هذا الذى رأيناه حلماً
قالت المملكة : لا يمكن ، فلم يحدث أن تركت الآلهة إنسانا
بغير أمل ..
قال الملك : هذا حق ، سوف أنتظر طلوع الفجر لأمضى إلى
الصحراء لألقاها وأحدثها عن أملى ...
قالت المملكة : وسأنتظر «مرى» لأحدثه عن عودة قلبه إليه ،
يا للبشرى ..

وفي قلب الظلمات قال « ست » إله الشر يحدث الشيطان
الساجد أمامه

— لماذا تسلك « تحوت » إلى هذين المخلوقين .. ؟

قال الشيطان : لقد لوح لها بشيء غامض كي يرفعا أبصارهما
مرة أخرى إلى السماء .

قال إله الشر : بأي شيء لوح لها .. ؟

قال الشيطان : بالأمل

قال إله الشر : وماذا أنت فاعل ، إنني أخشى أن يفقد الرهان

قال الشيطان : لا تخف . إنني سأقضي على هذا الأمل الذي

تمتد في قلوبهما ... إنني أعرف جيذا ، كيف أحطم الآمال

أقبل الليل ، وجلس الملك والملكة ينتظران تحوت ، كان ضياء الأمل الذى تألق فى حياتيهما ليلة أمس قد خبا وانطفأ ، ثم لم يلبث الملك أن قال :

— لا أدرى كيف أجدها ، لقد أخلفت ميعادها ، هل يعنى ذلك أننى فقدتها ... ؟

فقالت الملكة : و « مرى » لم يعد إلى الفندق ، لقد أخبرنى الخادم أنه حدثه فقال أنه لن يعود إليه أبدا ..

قال الملك بعد لحظة سكون : لماذا تتحطم آمالنا هكذا فى سرعة ...

فقالت الملكة : يخيل إلى أن الإنسان لا يأمل لذاته فحسب ، لا بد أن يصل أمله بإنسان آخر ، إننا لا نرى أمامنا ، أحباءنا الذين وصلنا آمالنا بهم .. لقد ذهبت - لهذا السبب - بهجة الآمال من حياتينا ...

قال الملك : لماذا ننتظر تحوت إذن ؟

قالت الملكة : إنه سيعود إلى بقلب مرى وسيعود إليك
بملكائك التى انتزعها الآلهة !

قال الملك : وما جدوى تحقيق هذه الآمال ، وقد فقدت
صاحبك وفقدت صاحبتى ..

قالت الملكة : ... من الواجب أن ننتظر « تحوت » إن
انتظار ما يأتى به الآلهة لا يخلو قط من خير ...

وكان النوم يقترب حذرا من جفنيهما . ثم يرتد مسرعا ، كأنما
تفزع به يقظة القلبين ، اللذين ينبضان فى صدريهما ، وكانت أعينهما
تومض فى ثبات عميق ، فلا يحتاج لهما جفن ... وانتظرا طويلا
وكانت كل لحظة تمضى ولا يشرق عليهما فيها « تحوت » يشغل
خطوها فى حياتهما ، كأنها تحمل أثقالا لا قبل لهما بها ، وتنقل
اليهما فيضا من الشكوك التى لاتنتهى ، ولم يلبث الملك أن قال « هل
سيعود « تحوت » حقا ، ما الذى اخره حتى الآن ؟ !

قالت الملكة : لعل ست الشرير يقتتل معه عند الأفق الشرقى
يمنعه أن ينفذ إلى هذا العالم .

قال الملك : إنه لن يحضر ، هكذا يخيل لى .

فقالت الملكة : إن الآلهة لا يخلفون الميعاد .

وفىما كانا يتناجيان بهذا الحديث ، أشرق القمر من بعيد عند

أطراف الصحراء ، فهتفت الملكة « أقبل تحوت ، أقبل ، لقد ضاع الأمل الذى حملته إلينا ليلة أمس ، أقبل ، ترى ماذا تحمل لنا معك الليلة » واهتزت أجنحة الضياء ، فهمست الملكة « تعال أيها الملك نسجد فلعل الإله يستجى من هذه النظرات . . »

وسجدا على الفراش ، فانطلقت المزامير تشدو فى السماء ، وهبط تحوت حتى وقف بجوار النافذة وساد صمت رهيب لم يلبث أن قطعه « تحوت » بقوله « أيها المخلوقان ، كم أحبكما فى سكوتكما وخشوعكما هذا . . هيا انهضنا ، إن رحمة « رع » فوق عدالة أوزيريس ، لأن قلب « رع » كبير كما لا تتصوران كبر القلوب . . . فجاءه صوتهما كما تأتى الأصوات من عالم الأحلام يقول :

— هل شملتنا رحمة « رع » ؟

قال تحوت : أجل .

قالا : هل سيرفع عنا العذاب ؟

قال : أجل . . أجل .

فقالا فى خشوع : إننا نحمدك ونشكرك أيها الإله العظيم

الضياء . . .

ثم تسأله الملكة هل سيمنحني قلب « مرى » . . ؟

قال : أجل .

قالت : وهل سأجد نفسي مرة أخرى مع القلب الذى فاض
على بالحب . . ؟
قال : أجل .

قالت : شكر آ لك أيها الإله العظيم الضياء . .
ثم يسأله الملك : وماذا من امرى أيها الإله . . ؟
فيقول تحوت : لقد قضت إرادة « رع » أن ترد إليك
ملكائك لكي تدرك معانى المجد والعظمة والخلود . . . وقضت
أن تهبك أفقا فسيحا ممتدا ، تتردد فيه أفكارك ونبضات
قلبك . . .

قالا معا : ومتى أيها الإله . . ؟

قال : فى الليلة القادمة .

قالا : فى أى مكان . ؟

قال : وراء الأفق .

قالا : أى أفق . !

قال : وراء الأفق الغربى .

قالا : تعنى . !

ووقفت الكلمات على لسانيهما . .

فقال تحوت : فى أرض الأموات ، فليس لكما أن تطمحا إلى

هذه الأشياء على وجه الأرض ، ولكما أن تختارا لنفسيكما ما تريدان .

فتجيب الملكة : وقد سطع في وجهها ضياء جميل « لقد اخترت أيها الإله ، إن في وسعي أن أمضي إلى أرض الأموات لكي أحييا مع القلب الحبيب .. »

وسأل تحوت الملك : وماذا تختار أيها الملك . ؟

قال : كما اختارت الملكة أيها الإله .

وعلت شفقي « تحوت » ابتسامة الظفر وقال .. « هكذا يفعل المؤمنون ، إذا ضاقت بهم هذه الدنيا ، إتجهوا بأبصارهم إلى السماء ، وإذا ذبلت في دنياهم الأشياء العظيمة على الأرض ، آمنوا أنها تزهر وتينع هناك .. وإذا دعاهم الآلهة لبوا مخلصين »
قالا — لقد لمبينا ...

قال : حسنا .. إنتظرا غدا عند نهاية الأفق الغربي ، سيأخذكم « رع » معه في زورقه الذهبي ، فإذا كنتما على الأرض الثانية منح كلا منكما مطلبه ..

قالت الملكة : و « مرى » هل نتركة هنا ... ؟

قال تحوت : لقد تحدثت مع كبير الآلهة عنه ، ولكنه لم يفصح لي عما إدخره له ..

وقال الملك : وعايده أيها الإله ..

قال تحوت : من تكون هذه الفتاة التى تهتف باسمها أيها الملك
فقال الملك : فتاة تحيا على هذه الأرض ..

قال تحوت : ليس من شأنى أن أتعرض لأمور هؤلاء الأحياء
بعد أن أغلقت معابدى على الأرض وانطفأت مشاعلها من الوجود
قال الملك : ولكنى الآن لا أشتهى المجد إلا لأجلها ...

فضحك تحوت لحديث الملك واهتزت أجنحة الضياء الرقيقة
فصعد عليها إلى السماء وهو يقول « لا تنسيا موعد « رع » لأن
الآلهة لا يحسنون الانتظار ، وإلى اللقاء على الأرض الثانية » .
فيقول الملك والملسكة : إلى اللقاء أيها الإله العظيم الضياء ..

وفى ذات الوقت الذى كان تحوت يلوح فيه للملك والملسكة بما
ينتظرهما وراء الأفق الغربى كان « مرى » يجلس فى ركن من أركان
الحان يشرب الخمر ، وصاحب الحان يرمقه من بعيد ثم سمعه وهو
ينادى الساقى ويقول له « إرفع هذه الكؤوس من أمامى .. » فقال
صاحب الحان يحدث نفسه « ترى ماذا أصاب هذا الفتى ! » ومضى
إليه فقال له « إن من حقه أن تشرب القدر الذى تشاء ، فلا
تخشى شيئا ..

قال : لا أريد أن أشرب شيئا .

- لماذا ترفض الخمر أيها الفتى ؟

- إني أتساءل لماذا أشربها !..

- ألا تحس بما تبعثه الخمر من نشوة .. ؟

- إني لا أحس شيئاً ، إن هذه الخمر لا تهزنى ، إرفعوها من

أمامى قبل أن أحطم هذه الكؤوس ..

- لماذا تبدو أيها الفتى هكذا ، تعال ، إنهنض معى إني

أعرف أسباب ضيقك ، تعال وسامضى بك إلى فتاة المرقص .

- لا أريد أن أراها .

- لماذا أيها الفتى الطيب ، ولم يرفض إنسان هذه الفتاة قبل اليوم ،

إنك لا تدري كم سفك الناس من أجلها من دماء ، ولا تدري كم

بذل الناس لها من مال ، كيف ترفضها أنت ... !

قال الفتى : هذه المتوحشة المتعطشة للدماء ... ! لا أريد أن

أراها ، وسأغادر هذا المكان ، ولن أعود إليه .

قال الرجل : آه ... هل بلغ الأمر بينك وبينها إلى هذا الحد ،

ماذا فعلت ، تحدث إلى ..

قال الفتى : فى كل ليلة تشعل فى جسدى الرغبة ، وتلهب روحى

بما تملك من أسباب الفتنة والإغراء ، ثم تصد وتدعى أحترق فى

هذه النار المتقدة فى جسدى وروحى .. آه هذه المتوحشة المتعطشة

للماء ، لن أبقي هنا لحظة أخرى ...

قال صاحب الحان : مهلا أيها الفتى ، وسأذهب لأصلح ذات
بينكما ...

ومضى صاحب الحان إلى مخدع فتاة المرقص ولما لقيها قال
« إننى سأفقد هذا الفتى ، إنه كل ما بقى لى ، وإذا خسرتنا هذا
الرهان فقدنا كل شيء لنا على هذه الأرض .. ماذا أقول
لإله الشر .. ؟

قالت الفتاة : إننى أمضى على مشيئتك ، وأفعل ما تأمرنى به
وأصده عنه كما تريد ...

قال صاحب الحان : أجل ، يجب أن نجد مخرجاً قبل أن
نفقد الرهان ..

وجأة إنشقت الأرض وخرج منها إله الشر وسقطت عن
الشیطان ملاحة الإنسانية وتبدى على هيئته القبيحة المفزعة ..
وذهب عن الفتاة طلاؤها ، وانطفأ بريق الفتنة الذى كان يلعب
على وجهها وجسدها ، فتبدت على صورة بشعة كريهة تؤذى العين
والحس ، ولم تلبث أن سجدت بجانب الشيطان أمام إله الشر .
قال إله الشر : لقد رأيت تحوت يتسلل الليلة إلى حجرة
هذين المخلوقين ، مرة أخرى ...

- قال الشيطان : أجل أيها الإله ...

- وماذا فعل هناك .

لقد أغراهما بشيء جديد ، إن وسائل الإغراء لا تنفذ من
يد هؤلاء الآلهة ، كلما انتزعت منه سلاحا رفع في وجهي سلاحا
جديداً .

- بأي شيء أغراهما ؟

- بما ينتظرهما وراء الأفق الغربي ...

- وهل صدقاه .. ؟

- إنك تعلم أيها الإله ، كم هي ساذجة تلك العقول البشرية .

- وهل سنفقد الرهان .. ؟

- بقي لدينا هذا الفتى ، ولن أدعه يفلت من يدي ، لن أدعه ،
لقد كنت إلى هذه اللحظة ألهب جسده بالرغبة حتى يظل حياً
ويعيش لنا ، أما الآن ، ولم يعد لنا سواه ، فسأدعه للشهوة ، لأنه
خير لنا أن يحترق ، ويغدو هشيماً على هذه الأرض ، من أن
يغادرها فيخسر الرهان ..

- حسناً ، كن على حذر فيما تفعل ، وفيما تفكر ، إنني أخشى أن

نفقد الرهان ، إلى اللقاء أيها الشيطان .

وانشقت الأرض فاختنى إله الشر، ووقف الشيطان، فارتدى
ملاحه الإنسانية، ونهضت الفتاة، تضع طلاءها على وجهها،
وجسدها المشوهين القبيحين، فعادت الفتنة تلعب وتتألق عليهما
من جديد ..

ومضى صاحب الحان إلى « مري » حيث تركه فقال « إنهض
أيها الفتى فإنها تنتظرك .. » وسعى « مري » إلى مخدع الراقصة التي
استقبلته هذه المرة في أحضانها ..

وقبيل الفجر نظر « مري » إلى الجسد الممدد إلى جانبه وقال
للراقصة « أهذا كل ما لديك ؟ .. »

قالت : أجل .

- أنك تكذبين

- .. لقد منحتك كل ما أملك ...

- إنك تكذبين ...

- أقسم لك أن هذا كل شيء ، ألم تحس النشوة والمتعة

- إنني لم أحس شيئاً ...

- إنك تخدعيني ، فلم تعطني شيئاً ، ولم أشعر بشيء .

- ليس لدى أكثر من هذا ، قلت لك ..

- إنك لن تخدعينى هذه المرة ، هات ما عندك ، وإلا قتلتك .
وقبض الفتى على ذراعها فابتسمت المرأة ساخرة منه وقالت فى
هدوء : هذا كل ما لدى ..

- ألا تخافين ... ؟

- إننى لا أخاف .

- سأنفذ بسكينى إلى صدرك

- لن تضرنى بشيء .

- أتتحدينى ... ؟

- أتحداك !

- إن الباب مغلق ، ولن يعصمك منى صاحب الحان .

- إننى لا أخاف .

وعلا مرجل الغضب فى صدر الفتى فمضى يهزها فى عنف
وسكينته يلعب فى يده .. ويقول « أريد أن أحس شيئاً امنحني
شيئاً من المتعة ، إشعلينى بالنشوة ، أمنحك الحياة »

- قالت فى هدوء : أيها المسكين ، لقد منحتك كل شيء ..

ولم يتمالك الفتى نفسه ، فأهوى بالمسكين على صدرها ثم نزعه
من جسدها ، فلم ير عليه أثراً للدماء ، وأذهله أن يسمع بدلاً من
بكاء المرأة وضراعتها ، ضحكته الساخرة وما لبثت أن قالت

له « إنك لم تكن أول من طعننى ولعننى ، أنظر هاهنا طعنة ..
وأنظر هاهنا ثانية ، وهاهى الثالثة . » ومضت المرأة تشير إلى
مواضع كثيرة فى جسدها ترك الطعن أثره فيها وعادت تقول
له « إتنى أتلقى كل يوم مئات الطعنات ، إتنى لا ألومك على شىء ..
لأن هؤلاء الذين أهبهم المتعة لا يلبثون أن يلعنوننى حال مغادرتهم
لفراشى .. إتنى لا ألومك لأنك لم تحس شيئا ، وإن كنت أعجب ،
لأن قلبك لم يستشعر النشوة مع أننى بذلت لك من ذاتى ، أكثر
مما بذلت لأى إنسان آخر .. »

قال الفتى وهو ذاهل - من تكونين .. !

قالت : أنا الشهوة ..

وحين لفظت الراقصة اسمها سقط عنها طلاؤها ، وتجردت
من كل زيفها ، وتبدت له على حقيقتها بكل ما تحمل من
قبح ودمامة ، فسقط السكين من يد الفتى وخرج من محراب
الشهوة ولم يلبث أن غادر الحار ، وسعى فى الطرقات
هائما على وجهه لا يكاد يحس بنفسه ووجوده ، رأى من بعيد
قمم الأهرام ترتفع أمامه عند نهاية الأفق ، فمضى يخترق الحقول
والجداول ، ويخوض الوحل والأشواك ووصل الفندق عندما
كانت الشمس تنحدر للمغرب .

كانت الشمس تسبح في فضاء السماء وهي تجنح إلى الغروب
والملك والملكة يسعيان جنباً إلى جنب إلى هذا الكثيب القائم في
الغرب من هذه الصحراء وحين وصلا إليه وقفا يتأملان الشمس
تنحدر نحوهما في ببطء ثقيل - كانت كلتا دنت منهما مسافة أحسا
بروح جديدة تحل في قلبيهما فتملأهما أمناً وأطمئناناً كأن أسرار
العالم الثاني قد تفتحت لهما على أروع وأجمل ما تفتح أسرار المجهول
للناس .

وسألت الملكة الملك : إذا كان الناس يستقبلون العالم الثاني
كما نستقبله نحن الآن ، فلماذا يخشون الموت ؟

قال الملك - لعلهم لا يطلعون على أسرارهِ إلا عندما يقفون
مثل موقفنا هذا ، ولا يكون بينهم وبينه إلا مقدار خطوة
أو أقل .

قالت الملكة - ومن يستطيع أن يقف مثل موقفنا هذا .

قال - كل من آمن بأن وعد الآلهة حق ، وبأن كل جميل يفقده
المرء هنا يجده هناك .

قالت الملكة ، وقد سرح بصرها بعيداً إلى الأمام ، أنظر أيها الملك ، ألا ترى هذين الشبحين اللذين يدرجان على الرمال ، إنهما يسعيان إلى ناحيتنا .

فتساءل الملك — من يكونان ؟

قالت الملكة — .. رجل وامرأة .. على ما أرى .

وظل الشبحان يقتربان منها حتى ظهرت لهما ملامحهما واضحة جليلة فقال الملك « هذه هي عايدة » وقالت الملكة « وهذا مري »
يا للآلهة ، إلى أين يمضيان .. ومن الذى جمعهما ! .

ومضت عايدة تصعد إلى قمة الكشيب فى جهد والعرق ينضح من جبينها ، ومري يسعى وراءها حتى وصلت إلى مكان الملك فالقت بنفسها على الرمال وهى تخرج أنفاسها المتقطعة فى عناء وتردد « لقد وجدتك أخيراً .. آه ، لن أدعك بعد الآن » .

قال الملك — .. آه يا فتاتى العزيزة لقد نال منك التعب ، استرعى لحظة يا عزيزتى .

وظلت الملكة تنظر إلى مري لحظة من الزمن ثم قالت له :
« إننا سنمضى وراء الأفق الغربى يامرى . »

قال الفتى — وهل ستدعانى وحدى هنا ، لا أريد أن أبقى ..
قالت فى أسف — إن الأمر ليس بيدي ، إنه بيد الآلهة .

قال — آه .. لا أريد ، ليس في الحياة ما يستهويني .. لا تدعيني .

قالت — لا أدري ، هل يسمح الآلهة بذلك ؟

فقال — إن قدرة الآلهة تتسع لكل مطلب .

وعلى بعد خطوات منهما وقف الملك يقول للفتاة « لقد ذهبت فجر اليوم ، إلى جوار الهرم فلم أجذك هناك ، لم أدر ما الذي عوقك فأخلفت الميعاد ؟ »

قالت الفتاة : لقد أحاطت بي الأفكار المؤلمة من كل جانب ولم تدع لي سبيلا أسلكه إلى أي مكان ، لقد انتهت الآن كل شيء إذ رأيتك ، تعال معي نعد .. لقد حدثت أهلي عنك ، وعمما حدثتني به فقالوا « لا يمكن أن ينطق بمثل هذا الحديث إلا رجل عظيم .. »
أنهم ينتظرون أو بتنا الآن .

قال الملك — .. آه لا يمكن يافتاقى ، إنني لا أستطيع

قالت الفتاة — لماذا ؟

قال الملك — إنني الآن في طريق إلى الدار الثانية ، إلى ما وراء الأفق الغربي .

قالت الفتاة — ما هذا الذي تتحدث به . ؟

قال الملك — إنه الحق ، يا عايدة .

قالت الفتاة — لا أفهم شيئاً ؟ .

قال الملك — إن لذلك قصة طويلة ، لقد ردتنا الآلهة إلى هذه الأرض أنا وهذه الملكة وهذا الفتى ، لنلقى بعض العذاب على ما قدمت أيدينا في الحياة الأولى ، وقد عذبنا بما فيه الكفاية ، وهبط علينا العفو الليلة مع الإله تحوت .. وهانحن في طريقنا إلى الأرض الثانية .. فقالت الفتاة .. « من تكون ؟ » .

قال — أنا الملك خوفو .

— ماذا تقول ! .

— الملك خوفو .

— إذن فلم أكن أحلم ، لم أكن أحلم ، عد معي إذا كنت تحبني .

— إني أحبك يا فتاتي الجميلة ، ولن أنسى أننى لم أذق السعادة

على هذه الأرض إلا فيما هب على منك من نسيمات ، ولكنى وعدت

الآلهة بالرحيل ، سأمضى وراء الأفق الغربى ، حيث ألقى المجد الذى

فتنك .. وحيث أمنح الأفق الفسيح الممتد امتداداً لا نهاية ، الأفق

الذى يتسع لنبضات قلبى ودقاته .

— تعال ، وكن لى ، دع المجد ، دع الأفق الفسيح .. تعال

نعش معا فى ظلال الحب ، حسبنا هذا من دنيانا — إن الحب يزن

كل ما على هذه الحياة .

لم ينطق الملك بشيء ، وتناول يد الفتاة ومضى بها إلى حيث

وقفت الملكة نفرتيتي ومرى ثم قال « أيتها الملكة ، إرشدني إلى الخير في هذا الأمر ، إن هذه الفتاة تدعوني إلى العودة معها ، تقول ، « حسبنا أن نكون حبيبين .. » ماذا ترين .. ؟

قالت : لقد جربت أيها الملك عذاب الآلهة ..

قال : « لقد كان عذابا مريراً وقاسياً . إنني لا أستطيع أن أطيق مثل هذا العذاب .. » ثم نظر إلى الفتاة وتابع حديثه وقال لها « إن عذابي وألمي سيمتدان إليك يا عايدته ، هذا أمر لا ريب فيه .. إنني لا أرضى لك مثل هذا العذاب ..

قالت : في سبيل الحب يهون العذاب ..

قال : إلا هذا العذاب الذي شهادته وبلوته ، لن يستطيع قلب يتعذب ، أي يهوى لك أسباب السعادة والهناء ..

قالت الفتاة : وقد بدأت الدموع تلمع في عينيها ، لا تركني لا تتركني ، لا يمكن أن أعيش بعيداً عنك .. » ثم سطع في عينيها ضياء جديد ووقفت الدموع تلمع في عينيها :

وقالت : لماذا لا تأخذني معك .. ؟

قال : معي .. !

- أجل .. -

- إلى وراء الأفق ، حيث أرض الأموات . !

- حيث أرض الأموات .

— هل تسمح الآلهة بذلك . . ؟

— إن قدرة الآلهة لا تحدّها حدود، إنها تتسع لكل مطلب .

قال الملك يحدث الملكة نفرتيتي : ماذا ترين . . ؟

قالت الملكة : من الواجب ، ماداماً قد آمنا بذلك ، أن نرفع

أمرهما إلى « رع »

فقال : « هيا أيتها الملكة ، هيا ، ها هو ذا الإله الأعظم يهبط

اليينا وينحدر إلى ما وراء الأفق » ثم اتجه إلى عايدته وقال لها « صلي

له ، فلعله أن يستجيب لطلبك . . »

قالت : ولكني لا أعرف صلاتكم . .

قال : صلي له أية صلاة تأتي إلى قلبك . .

ثم تركها ومضى هو والملكة وانحدرا وراء الأفق . .

وهناك وجدا « رع » واقفا ينتظرهما وعلى فمه ابتسامة كبيرة

وحين بصر بهما ينحدران إليه قال : هيا أيها المخلوقان ، ألم يخبركما

« تحوت » بأن الآلهة لا يحسنون الانتظار . هيا . . هيا »

قالا : إن لنا مطلباً أيها الإله .

قال : ماذا تريدان . . ؟

وفيما كان الإله الأعظم يلقي إليهما سؤاله ، وصل إلى أذنه

صوت غناء من على الأرض الشرقية فأرشف السمع فسمع من يقول :

« أيها الإله القادر على كل شيء . يامن وهبتي قلبي
وجعلت مدى ما يذهب اليه فسيحاً لا نهاية له .
يزرى بالعقل ومداه ..
إنك أيها الإله لم تدعه يمضي في مداه بغير نور .
ولكنك أوقدت له مشاعل الحب والأمل والإيمان .
فمضى يخطر في الضياء ويزهو بالسعادة .
لقد عشت إلى يومين بالأمل والإيمان وحدهما .
كان الأمل يخبو بين حين وحين .
وكان الإيمان يتأرجح ذات الشمال وذات اليمين ..
ولكن عندما أوقدت أيها الإله شعلة الحب في قلبي .
أصبح للأمل نوراً يملأ فضاء الأرض وينفذ إلى السماء .
وتمسكن الإيمان في القلب ، حتى آمنت بما لم يؤمن به بشر ..
إنك ستفتح لي مفاتيح الأرض الثانية .
لأَمْضَى مع الحبيب ..
أيها الإله القادر على كل شيء ، هذا أُملي قد بلغ مداه ..
وها أنا أصلي لك كما تأتي إلى قلبي الصلاة ..
فتقبلها يا إلهي فأني مؤمنة ، مؤمنة ..
وإن كنت لا أعرف كيف تؤدي الصلاة »

قال «رع» : ما هذا الصوت الجميل . . ؟
قال الملك : إنه صوت فتاة تصلى لك أيها الإله .
قال «رع» : إنها أروع صلاة جاءت إلى من على الأرض ،
تبدو كما لو كانت جماع الايمان الذى تمتلئ به قلوب البشر .
قال الملك : إن لها مطلباً أيها الإله .
فابتسم «رع» وقال : يا للبشر ، إن صلاتهم لا ترقى وحدها
أبداً ، دائماً تأتى إلى آذاننا ومعها شيء من أمل أو رجاء ، ماذا
تطلب هذه الفتاة . . ؟

قال الملك : إنها تريد أن تهبط معنا إلى هذه الأرض ..
قال «رع» : قبل أن يحين من أجلها . !
قال الملك : أجل .
قال «رع» : ماذا تنشد فى هذا العالم . .
فقالت المسكنة : . . الحب ، يا مولاي .
ثم عاد صوت الفتاة يتردد فى أذن الإله عذبا رقيقا وهى تغنى :
« أيها الإله القادر على كل شيء ، هذا أملى قد بلغ مداه ..
وها أنا أصلى لك كما تأتى إلى قلبي الصلاة .
فتقبلها منى يا إلهى ، فإنى مؤمنة ، مؤمنة .
وإن كنت . . لا أعرف كيف تؤدى الصلاة . . »

فقال الإله الأعظم : « سارعا إليها ، فقد أذنت لها بالخروج من الأرض الشرقية ، لقد آمنت بأعظم عقيدة يمكن أن تنزل لها المعجزات ، . هيا ، سارعا إليها . »

لكن الملكة وقفت مكانها تنظر إلى الإله الأعظم بعيون متوسلة كأنما تريد أن تفصح له بنظراتها عما عجز لسانها عن النطق به :

فسألها الإله : لماذا لا تذهبان .. ؟

قالت الملكة : و « مري » أيها الإله

قال « رع » : « مري » هذا الفتي الذي خدم الشيطان لقد تدنس جسده ، لا تحدثيني في أمره .

قالت الملكة وهي تبكي — ترفق به يامولاي .

فقال رع : لقد تدنس جسده ...

قالت الملكة : إنك تعلم ، مقدار حبي له ...

قال « رع » : لن يكون له أن يدخل هذا العالم قبل أن يطهر جسده من أدران الآثام .

قالت الملكة : وكيف يتأتى له ذلك يامولاي ... ؟

وظل « رع » لحظة لا يجيب ونظرات المرأة معلقة بوجهه

ثم قال ، وهو يربت على كتفها في حنان « إن حب المرأة ودية

مخلصة يمكن أن يطهر الإنسانية من كل أدرانها ،

فرفعت الملكة نظراتها إليه في دهشة، وتعجبت كيف لم تعرف ذلك ، وكيف غاب عنها هذا السر العظيم ، وتناول الملك يدها وقال « هيا فإن الآلهة لا يحبون الانتظار .. »

وأسرعا إلى حيث تركا عايده ومرى ، فقالا لهما « هيا فقد سمح لكما الإله بالدخول معنا إلى هذا العالم »، وأسندت الفتاة رأسها إلى صدر الملك وقالت وهى تبكى « كنت أو من بهذا .. كنت أو من أنه سيستجيب لحجى ، ولصلاتى .. »

وقال مرى وهو يسرع أمامهم ، ليفر من هذا العالم العجيب « فلنسرع فإن نسبات هذه الأرض تكاد تخنقنى .. »

فصاح به الملك : « إنتظر أيها الفتى ، انتظر ، يجب أن تتطهر من آثامك ، فلن يؤذن لك بالدخول قبل ذلك . »

فوقف الفتى ونظر إلى الملك وهو لا يفهم شيئا وقال .. « ماذا أفعل حتى أتطهر منها ! »

قال الملك : تطهر فى حب هذه المرأة الوفية المخلصة ..

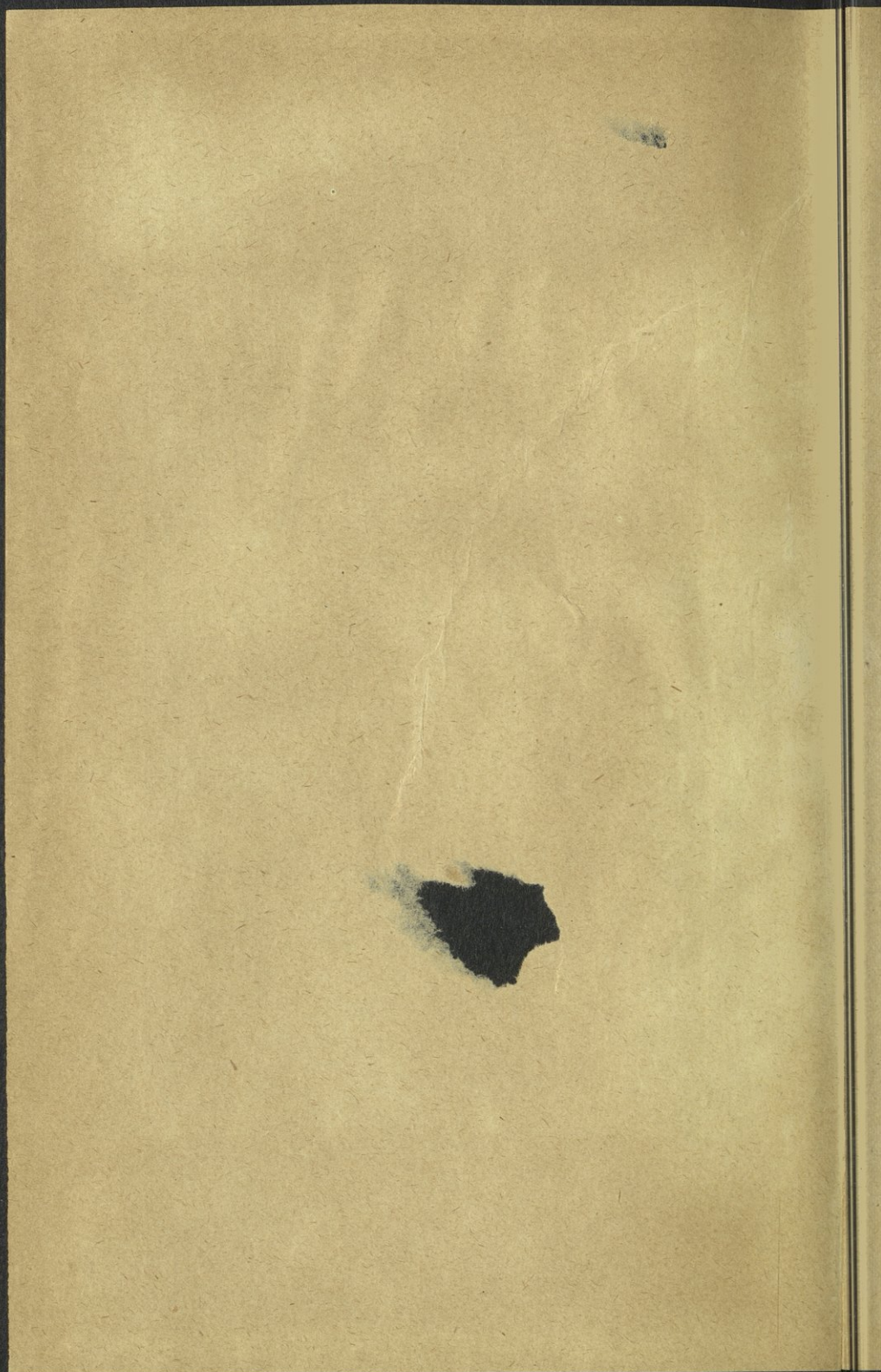
ومضى مرى فسجد أمام الملكة وقال وهو يبكى « مولاتى طهرينى من آثامى » فتناولت الملكة يده فنهض وتعانق الحبيبان ثم سعوا جميعا ومضوا ينحدرون وراء الأفق الغربى . وردد الفضاء وراءهم على الأرض الشرقية قبيلات كثيرة ، مضت تتردد على كل مكان ، كالأنشودة الخالدة تذكر هؤلاء الأحياء على الأرض أن

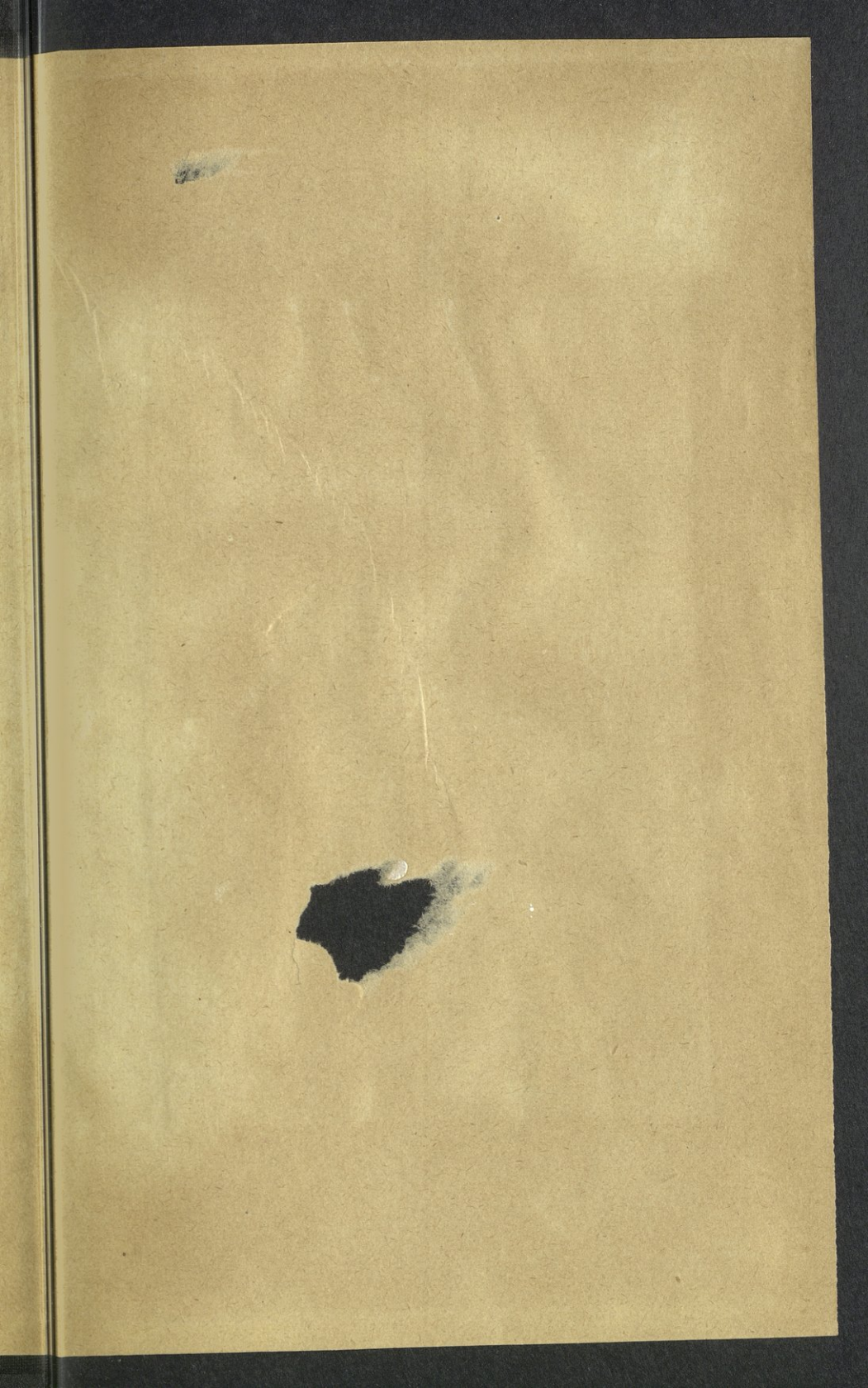
الحب لن يموت .. وأن على الذين يؤمنون به ألا ييأسوا من
معجزة تنزل لهم من السماء ..

وفي غمض الليل ، وقبل أن يشرق الفجر بالنور ...
وقفت الظلمات في جانب ومن ورائها الشيطان ، ووقف النور
في الجانب الآخر ومن ورائه الخير ..
وصاح صائح الخير : « أيها الشيطان ، إُدفع إلينا الرهان فقد
كسبنا هؤلاء البشر .. »

وهمس الشيطان في أذن إله الشر وقال . « لا تنطق بشيء ... »
وعاد صائح الخير ينادى ... « إُدفع إلينا الرهان » .
فهمس الشيطان في أذن إله الشر وقال .. « لا تنطق .. لا تنطق
فقال صائح الخير : إن مثلك لا عهد له .. وليس لنا أن نكلفك
فوق طباعك .. أيها الخائن الختول ، هيا إمض من أمامي مادمت
لا تجيب ، هيا قبل أن تخنقك أنفاس النور .. »

وولى الشيطان الأدبار ، وبدأ النور يزحف على الأرض
من الشرق ... فأختفت الظلمات .. ؟





892.73:Sh52

سعيان، محمد محمود

وراء الافق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038166

American University of Beirut



General Library

892.78
Sh 5758wA
C.I